سرد

رائد وحش

قطعة ناقصة من سماء دمشق

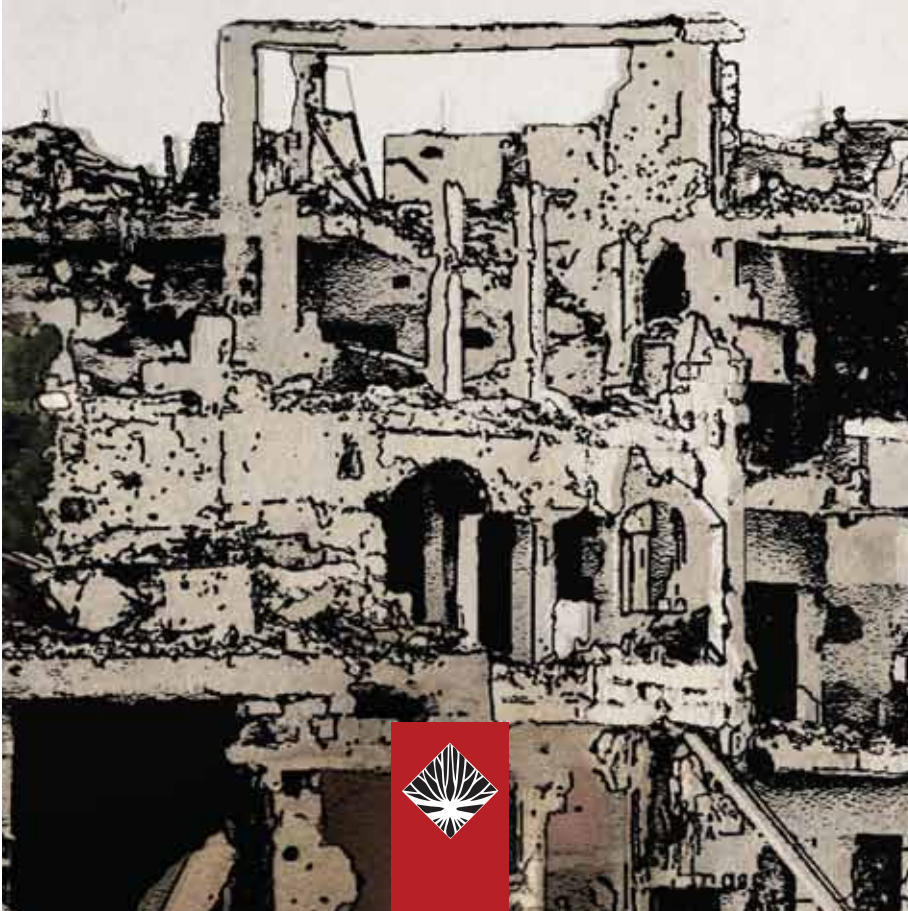

قطعة ناقصة من سماء دمشق

رائد وحش

قطعة ناقصة من سماء دمشق

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

قطعة ناقصة من سماء دمشق

تأليف: رائد وحش

الإخراج: لمى حويجة

تصميم الغلاف: مناف عزام

ISBN: 978-9933-9119-1-1

الطبعة الأولى: 2015، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.

Supported by بالدعم من

The Arab Fund For Arts and Culture
الصندوق العربي للثقافة والفنون – آفاق

AFAC آفاق

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا–دمشق –المزة–ص.ب 9838

جوال: 00971557195187

فاكس: 00963116133856

البريد الالكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع: addar.mamdouhadwan.net

fb.com/Adwan.Publishing.House

twitter.com/AdwanPH

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت الكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

إلى عبير اسبر:

المنازل مبنيّةٌ للغياب، وسكّانها مبنيّون للمجهول...

هناك قطعةٌ ناقصةٌ من سماء دمشق التي ودّعتُهَا أمسِ، لا أستطيع تقدير حجمِهَا لكنَّها قطعة كبيرة جداً، إلى درجة أنّ السماء لا تبدو ناقصةً وحسب، بل مُفترَسة. أثرُ غيابِ القطعة الزرقاء هو قطعةٌ سوداء، تبدو من تحتُ، حيثُ أنا لا أنتِ، نُدْبَةً داكنة.

في السرفيس الذي يتهادى كهودجٍ في الزحام أتصور الأمر هكذا: أنيابٌ عملاقةٌ نهشت جزءاً من القبة الزرقاء مع ثلاثة أرباع غيمة كانت عابرة، إلا أن الفكّ المفترس المجهول جمَّدها مكانها، فعلى حوافِ الأسود لطخةٌ غيميّةٌ بيضاءُ تأبى التبدّد..!

استغرب الرّاكب الذي بجانبي، في السيارة المتوقفة أمام حاجز الجيش، حين أشرتُ من النافذة إلى النقصان في الأعلى. مدّ رقبته القصيرة في محاولة استطلاع، مدّ عيينيه الغائرتين في محجريهما بلا جدوى. دخل على خطّ الحديث ثالثٌ واستغرب أيضاً، ورغم كلّ تأكيداتهما أنّه ما من شيء، أو أني أعاني خداعاً بصرياً، ما أزال مصراً على تآكل الزرقة، وبأنياب غولٍ أسطوريٍّ مجهول حصراً.

في البيت تداخلت في رأسي الحكايات القديمة، ومن تداخلها وجدتُ تفسيري: الناقص في السماء هو حصّتي..!

كان الأهل يتعبون كثيراً في إفهامنا أنّ لكلٍّ منا حصةً سماويةً، من

النجوم والغيوم، ومن الجنان التي في الأعالي. دائماً كان يفعلون هذا رغم أسئلتنا المحرجة بخصوص الحصة الأرضية التي تبقى بلا جواب إلى أجل غير مسمّى (بالنسبة لي انتهى ذلك الأَجَل حين وجدتُكِ، من وقتها بدأتُ التصرّف على أساس أنني أحوز على كامل حصصي فوق وتحت، وما بينهما أيضاً).

واصلتُ طريقي إلى البيت مُحدقاً في الأعلى، وقلبي يقول إنني لن أعود إلى دمشق إلا راحلاً عنها.

تحت سقف الطيبة المنزلية، ومع الإحساس المَرَضي بغياب السماء، شعرتُ بيُتمي. فجأةً، في البيت، شعرتُ للمرّة الأولى أنني بلا سماء، ثم بدأتُ أتفقّد الأرض من تحتي، وكان لي أن أترنّح على حواف الجنون الفجائيّ، ليس لأنني بلا سماء وأرض، بل لاكتشافي في غيابهما نَفْسي وحيدةً، ليس أنها بلا أحد، بل بلا نفْسها..

ويمرّ الوقت وكأنه لا يمرّ.

كالرحمة الإلهية نزلت رسالتكِ في الموبايل. وفيما أقرؤها وصوتٌ من الغيب يتلوها ملءَ المكان اجتاحتني عاصفة بكاء. داهمني الشعور بأنني فقدتكِ إلى أبد الآبدين، وبعد مرور لحظاتٍ ميّتةٍ تماماً، وقفتُ كالدرويش ورحتُ أُرقّيني، هلوساتي ارتجلتِ التعزيم في طقوسية الوداع. كان وداعاً للعالم... إذْ ماذا سأفعلُ بعدكِ؟

في الفترة التالية، ومع العافية المستعادة من بريدنا الالكتروني، رحتُ أتسلّى بتأليف الروايات، كلّ ساعة أختلقُ حبكةً وأستغرق فيها. أرويها لطارق العربي على «سكايب»، وفيما يظنّني أروي

أواصل ارتجالاتي. أقول سأفعل كذا، وسيحدث كذا. وفي الساعة التالية أكتب له حبكةً جديدةً لا علاقة لها بكل ما عقدتُ العزم عليه، وبالطريقة ذاتها أغوص في كذا وكذا.

أركض إلى جدار «فيس بوك» وأكتب لكِ: «لماذا نكون مستعدين استعداداً تاماً للموت حينما نحبّ؟؟ أليس الحبّ هو الوقت المواتي للحياة، مطلق الحياة..؟ إذاً، في الحب السر العظيم: الموت مطلق الحياة».

القطعة الناقصة في سماء المدينة التي تكبر الآن، أغلب الظن، سمّيتها «ثقب أوزوني» لاعتبارات تتعلّق بإيماني المتأخّر بحصّتي فيها. طبعاً سيظلّ الناس يقولون إنها بسبب القصف، وسأظلّ أعاندهم على أنها من غيابكِ. وإذا كان لا بدّ من نقاش حقاً سأفهمهم بالهدوء الذي تعلّمته منكِ بأن السماوات لا تزعج زرقتها الحروب، فلو كان ذلك صحيحاً لما كانت هناك سماء منذ الحرب العالمية الثانية..!

ثقبُ السماء كبير لأنّ حصتَهَا منكِ، أنتِ الوحيدة، كبيرةٌ.. كبيرةٌ.. كبيرةٌ..

في فيلم محسن مخملباف «الصمت» الذي أشاهدُهُ الآن يسقط الطنبور من يد خورشيد، الطفل الأعمى، بينما يسير تحت وابل المطر. خورشيد المغرم بالأصوات يزحف إلى طنبوره وكأنه يراه فعلاً في الجو العابق إلى درجة اللا رؤية. حبال المطر المتساقطة على الأوتار عزفت موسيقاها المرتجلة ودلّت أذنيه على الطريق إليها.

لا أعرف أيّنا الصغير الأعمى، ولا أيّنا الطنبور، أعرف فقط

الموسيقى التي بين قلبينا، أعرفها وأتبعها.

يدا خورشيد عينان أيضاً، حين سمع صوت البائعة ولمس خبزها، أطلق جملة ستبدو أكثر شعرية لو انتزعتْ من سياقها: «البنتُ ذات الصوت الجميل خبزها جيد»، هو أيضاً عرف صديقته من ملمسها: «جلدكِ مثل الخوخ».

خورشيد مخملباف أخذني إلى سخونة خبزكِ الطيب، وبشرتكِ التي تنافس الفواكه. مثله أغمضتُ وجلبتكِ مردّداً كلماته السحرية: «عيناكَ تصرفان انتباهك، لو أغلقتهما لتعلمتَ أفضل».

لا تقوى عليكِ العيونُ إلا مغمضةً، ولا تأتين إلا على شكل منام...!

كخورشيد الطيب الذي رقّ قلبه للنحلة ها إنني أرفع يدي إلى السماء، بفارق أنكِ أنتِ نحلتي المسافرة: «إلهي.. حين تعود هذه النحلة إلى بيتها لا تدع مكروهاً يحدث لها، ولا تدَعْهَا تضعْ».

أحنّ كثيراً إلى الغد الذي منحته لي. صحيحٌ أننا لم ننجز ماضياً يليق بالحبّ الذي نحمله، لكنني سعيدٌ بهذا القليل الذي حدث، كان قليلاً لتكون فينا طاقةٌ كبرى لانتظار الكثير الذي سيحدث.

جميل أننا لم ننجز ماضياً، بل وعود غدٍ.

لأنّك امرأة ذلك الغد أنتقل بسلاسة بين مخالب أيامٍ لا توفر أرضاً أو سماءً.

لأنكِ امرأة الغد أتسلح بقنديل كازٍ قديم وأعبر النفق.

صبّ أبي فنجان القهوة الأول، شربه بتلذّذ ثم راح ينشد في مديح القهوة العربية وهي تدور علينا. انفتحت القرائح على الشعر فتحوّل المجلس إلى ما يشبه مبارزة بالكلمات.

عدنا بدواً على غفلة منا، وعاد البيت مضافةً تعمر كل ليلة بالعائلة والأقارب والأصحاب والنازحين.

عدنا بدواً تجمعنا القهوة وقنديل الكاز في عشيّاتٍ حكائية.

كل يوم نشعر أنها التعليلة الأخيرة، فالعاصفة تقترب أكثر وأكثر، لذا أخذ المسرح شكله الأقصى؛ ليلةٌ لفرحٍ أقرب إلى الهبل ندبك فيها في الغرفة على «كاسيت» عرسٍ قديمٍ، وليلةٌ لحزنٍ متوحّشٍ لا يوفّر حتى لهب القنديل، فنراه يمعن في محو وجوهنا، إلى درجة تجعلكَ تظن أنك تساهر الظلال.

آه.. سرعان ما كبرنا، سرعان ما نما الشَّعر أسود فاحماً على وجوهنا السمراء. كأنما نكبر لنصير ليلاً، أو أنّ في الأعمار ليلاً بعيداً، مضِي الأيام يجعله يقترب أكثر فأكثر، لتأتي النهاية على شكل لطخةٍ سوداء كاملة. ربما يبدأ الأمر في لطخة سمائيّة سوداء، من يدري..!!

في مضافتنا الديمقراطية، على خلاف المضافات البدوية التقليدية، حيث يجلس الجميع، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً.. نكتشف أننا فعلنا الأشياء ذاتها، الأجداد والآباء والأحفاد، جميعنا فعلنا الأشياء التي تجعلنا من عمر واحد، وها إننا نلتقي لنتحدث عن أوّلنا، فما من أحد منا إلا ولا يزال هناك، وها إنه يتحدّث ليثبّت أقدامه في الـ«هناك»، في الأول.

أولنا المخيم والخان والشيح.

أولنا مخيم خان الشيح اسماً مقدوداً من وصف المكان.

إذا أردتَ تأسيساً أسطورياً فدونك الماء. ها هو النهر، النهر الأعوج، واسمُهُ وصفُهُ.

لأننا من أصول بدوية اعتصمنا بالنهر. القبائل التي هاجرت من فلسطين المنكوبة خيّمت على ضفة النهر لخوف دفين في ذاكرة القوم من غياب الماء، من انعدام الثقة بالسماء، على عكس الفلاحين الذين يؤمنون بأنها لن تنساهم أينما حلّوا، بينما نحن الذين نؤمن بالأرض وبماء الأرض سكنا هنا. لحسن الحظ أنّا وجدنا نهراً أعوجَ نحاكيه. أهل البداوة لا يعرفون خطاً مستقيماً، وبشفاعة اعوجاج النهر شوارعنا كلها عوجاء. ما من شارع يستقيم لأكثر من ثلاثة بيوت.

ماء أعوج لمكان دهليزي.. لكنّنا واضحون. فرّغنا الاعوجاجات الداخلية ليكون لنا داخل خالٍ من كل عوج.

الخان القديم فقد وظيفته كمحطة بين الأستانة ومكة، ولم يبق منه غير هيكله الخارجي. بقي كذلك كدلالة للمكان الفلسطيني المؤقّت.

الشيح، النبتة البرية التي جلبَبَتِ المكان، قلّت إلى حفنات لا تكفي قطيعاً.

المخيّم رغم كل التحولات، من تهميشه بعد انتقال الثقل الفلسطيني إلى داخل الأرض المحتلة حيث غابت الشعارات الثورية عن جدرانه، وصار التغيير واضحاً في تسمية محلاته التجارية التي انتقلت من الأسماء الوطنية إلى الأسماء الدينية، وتوسّعه الكبير خارج الدائرة التي رسمتها «الأونروا»؛ المخيّم رغم كلّ ذلك ما يزال مخيّماً، ليس كمكان، لا، فهو بهذا المعنى مثل عشوائيات المدينة وضواحيها. المخيم أكمل تحوله من مكانٍ إلى إنسانٍ. لو سردتُ لك الأسماء: أبو فيصل، الفرنسي، الكوبي، الحنونيّة، مريومة، حازم.. ستجدهم كلَّهم واحداً. هذا الواحد هو خلاصة البداية التي نتعلّل عليها بالقهوةِ وضوءِ القنديل، لا سيما في الوقت الذي يرشّحنا جميعاً للموت. ثم إن فمويتنا الشيحيّة موتيّة، فنحن نعبّر بـ«تحت النهر» أو «فوق الطريق» دون أن نعني الغرق أو الدهس. هي مجرد أسماء محلية للجهات؛ شرقَ النهر وغربَ الطريق.

لكنّ هذا التحوّل يخفي نقلة نوعيّةً في جوهر الحياة، فمنذ غابت النّار وحلّت محلّها الكهرباء في البيوت والشوارع أخذ نوع أحيائيٌّ جديدٌ بالتكاثر كالبكتيريا، وتجلّى خطر هذا النوع أكثر ما تجلّى في تبشيره الكاسح بالاستغناء عن الشمس، واستطاعته، في الآن ذاته، محوَ الليل. لم يعد أكل الطعام المكهرب، وتنفّس الأوكسجين المكهرب، والعيش في نهار طويل وملفّق.. أمراً خطيراً، بل إن الخطر في تلك الكائنات الكهربائية التي لا يمكن أن ترى إليها إلا كبطارياتٍ باقيةٍ ما بقي فيها كربونٌ قابلٌ للشحن. منذ عادت النار إلى وظائفها في الإنارة والتدفئة، في

حضور قوة الإلهيّ في البشريّ، حسّاً وعاطفةً وفكراً.. منذها، مع استعادة أهم عناصر الخلق، عدنا إلى أوّلنا.. عدنا ناريين جداً، وما لهب القنديل إلا علامة في التحول الكبير. فمثلما فعلت النار في التاريخ، إذ لم تكتف بتقديم النور وإنضاج الطعام، بل قامت بتطويع المعادن، ها هي ذي نار القنديل تطوّع معدن الخوف، ومعدن الألفة، كي لا تسمح للجحيم بأن يكون جحيماً.

النار وحدها كتبت بداية المخيم، ووحدها ستكتب نهايته أيضاً.

بسطات على طول الطريق. الذين فقدوا أعمالهم تحولوا إلى باعة بسطات، والطرق كلها صارت أسواقاً. طبعاً أقصد بسطات البلدات والضواحي، فالتي في المدينة هي بسطات ذات مهمات أمنية. في إحدى المقابلات التي بثّها التلفزيون السوريّ في الصيف الماضي قال بائع بطيخ في حي الميدان: «نحن متمركزون هنا».

الحياة نفسها بسطة مطروحة أمام العابرين، حياة الفقراء طبعاً، في حين أن حيوات القلة القليلة تبقى سوبر ماركت، حتى لو في يوم القيامة..!

الحشّاش فتح بسطة خضار. وقفتُ قرب بضاعته وأطنبتُ في مديح حبّات الفجل الفاخرة فاحتدّ وأوقفني ففي هذا المديح ظلمٌ للبطاطا. زميله الحشاش الآخر دخل على الخط وسأله: «بكم غرام البندورة؟». ضحكنا، ضحكت امرأةٌ عابرةٌ، ضحكت صناديق الخضار، فوحدة «غرام» ذات دلالة في عالم الحشيش.

المجنون مسّوس أبو الشيخ تحول إلى بسطة. وقف في الشارع وراح ينظّم السير. وقوفه ذكرني بقصة رواها لي صالح علماني كان قد قرأها لدى كاتب أمريكي لاتيني، تتحدث عن مجنونٍ

طموحه الأكبر أن يتحول الى شرطي مرور. صفارته ظلّت تلعلع في الشوارع الخلفية وراء الدراجات والشاحنات، وحين جاءت الاضطرابات الأمنية إلى بلاده حصل على قبعة شرطي فخرج بها الى شارعٍ عامٍ ليحقّق حلم حياته، دون أن يدري، كما هي عادة الأحلام الكبرى، أنه سيكون هدفاً لرصاصة معارِضة ستورديه بوصفه أحد أعوان النظام.

مسّوس كان عاقلاً ذات يوم، وكان اسمه موسى. تزوّج وأنجب بنتاً، لكن الحياة اللئيمة أفقدته عمله بالتوزاي مع جفاف ثديي زوجته، فسقى الرضيعة حليب بقر لتموت بين يديه وهو يركض بها بحثاً عن طبيب. مسّوس ظلّ يركض بابنته المتخيّلة، حتى قاده الجنون إلى تنظيم السير في بلاد لا يرعاها بالتنظيم إلا الموت.

مسّوس سيموت عما قليل، ربما دون أن يحصل على صفارة وقبعة شرطي. شخصٌ مثله يجعلك ترى موته بالعين المجردة، حتى لو لم تسمع بقصة ذلك الكاتب التي سولَفَها المترجم.

اشتريتُ سندويشة شاورما من المحل الذي اعتُقل عاملُه، وحلّ محله واحد آخر يصنع سندويشات لها طعم البلاستيك المحروق. أكلتُ سندويشتي كعلامة من القدر فيما أفكر بفتح بسطة، لكنْ بسطة ماذا؟ كل ما لدي هو كتبي. ضحكتُ في سرّي فقبل يومين نصحني يوسف بتفصيل مدفأة حطبٍ وإشعال الكتب فيها، ذلك أن الحطب عملة نادرة. قال واصفاً المكتبة: «تكفي لشتائين على الأقل». الناس يسطون على شجر البساتين بالمناشير والفؤوس. يوسف نفسه حطّب لأهله شجرة مشمش عملاقة، وحين اعترضتُ على سلوكه أمام نصيحته الخرقاء بحرق الكتب قال كحكيمٍ: «نموت مع أشجارنا أفضل من أن

نموت كلٌّ على حدة».

عدتُ متأخراً من سهرةٍ أعادت رعشة الأيام الخوالي، كنا نتحدّث فيها كما لو أننا نستعيد ذواتنا كبشر.

عدتُ متأخراً وهالني عدد الكلاب التي تملأ الطرقات. الكلاب ملوكُ الليل، لكنها الآن أكثر من ذلك. في السابق كان يكفي أن ترمي حجراً ليهرب القطيع كله، اليوم بدون ضربة حجرٍ ركض ورائي اثنان بنباح لعين، وأقسم أنني أكتبُ هذه السطور باللهاث المتبقي من هربي.

الكلاب مسعورةٌ من أكل الجثث المتراكمة على قارعات طرق الأمكنة الساخنة، وداء الكَلَب يستعيد وهجه.

الحياة بسطاتٌ. التلفزيونات بسطاتٌ. الإنترنت بسطاتُ وَهْم. النساء (وهنا أتحدث عن دلال وأخواتها) بسطاتُ غرائز تشعل دمنا في هذا الصقيع.

الكتابة بسطةٌ أيضاً.. أتذكر صحفياً فلسطينياً أثار ضجة عبر زاوية سماها «بسطة كتابة».

بسطة كتابة.. هذا ما أفعله الآن، فمن يشتري هذا الألم..؟

استعادت البِقَالة ألقها. ازدهرت دكانة صبحي من جديد. كان صبحي آخر من حافظ على شرف المهنة، فبسبب عقليته المتحجرة ظل يرفض كل أشكال التخصص حين باتت هناك محلات للمواد الغذائية، وأخرى لمواد التنظيف، وثالثة للأقمشة. لأكثر من عشرين سنة تحمّل شحّ الزبائن وقلة الطلب حتى مات مكموداً. فتسلّم الدكان أحد أكثر أبنائه تشبّهاً به، ليبقي تقاليد الوالد كما هي، منذ افتتاح تجارته قبل نصف قرن.

لا تزال الأدوية على رفوفها: مسكِّن «ساريدون»، برشام للزكام، دواء أحمر «اسمه الطبي ميكروفروم، وقد ألغي عالمياً»، دواء القمل مع المشط الأبيض المخصص لسحب تلك الطفيليات، كاسات الهوا، الأبر الصينية لمرضى الأعصاب، قطرانٌ للجرب، إلى جانب بودرة قتل الصراصير.

لا تزال الحلويات القديمة تتجدّد، فلدى صناعها العنادُ ذاته الذي لدى البائع: برازقُ بعجوةٍ، القطعة الواحدة تكفي لقتل رجل. هريسة تصمد في كل ظروف المناخ.

حاجيّات النساء: كحلٌ وحنّاء وشَبَّة.

اللوازم المدرسية بجوار الأكفان.

ألواح الثلج الملفوفة بخيشٍ مبلول بالماء كرفض قاطع ونهائيّ لاختراع الثلاجة.

المازوت، زيت الكاز، أسطوانات الغاز والبوابير والقناديل.. إلخ.

بقالية صبحي هي ثالث بقالية في المنطقة، وآخر واحدةٍ باقية، فالأُخريان اخفتهما التحولات العصرية.

في أيام عزّ تجارته كانت ديونه لدى الناس تعادل بنكاً. حتى أن الفقراء يتندرون به، فالذاهب إلى المرحاض يقول: «ذاهب لأسدّد صبحي». المديونون يرونه بالوعةً لا تشبع، ولأجل الإمعان في تحقير جشعه يجعلونه بالوعة مرحاض.

كان مرة بصبحة صديقه في إحدى قرى جبل الشيخ، وفي طريق العودة الليلي المضبّب كيوم مبكّر من أيام الخلق، انزاحت السيارة عن الطريق العام لتخترق جدار أحد المنازل، ولم يكن ذعر تلك الأسرة من ذلك الاقتحام الشيطاني يعادل ذعر الأب من رؤية دائنه في غرفة المعيشة. صبحي، بين الصحو والإغماء، سأل صديقه السائق: «أين نحن؟»، فأجابه من إغماء أشدّ من الصحو: «في المريخ». في هذه اللحظة اقترب رب الأسرة من صبحي يتوسله أن يؤجل دينه، فقال، بنشوةٍ لا تعرف من أية درجة من درجات الإغماء جاءت: «حتى في المريخ لديّ ديون».

تَزَاْحُمُ الناس أمام دكانةِ كلِّ شيء يُشعركَ أن الزمن يمشي إلى الوراء، ويُشعر الأبناء أنهم في خضم قصص آبائهم التي لطالما

تململوا منها، ولطالما اعتبروها نوعاً من المغالاة، لولا هذه الأيام التي جعلت القصص كلّها قصة واحدة، حيث ذاكرة الآباء واقعٌ لدى الأبناء، وحيث البقال ذلك البرجاويُّ الذي يطوف ببضاعته على حمارٍ بين ديار البدو.

يصر كابوسي على أنْ يتكرّر. عناده الغريب أعاد الحبكة نفسها سبعَ ليالٍ متتاليةً خلال هذا الأسبوع، على أنّ السيناريو كانت تطاله بعض الرتوش حذفاً وإضافةً، مع الإبقاء على الحبكة الرئيسية متمحورةً حول فقداني لبطاقة هويتي في المدينة، ومحاولاتي العبثية في العودة إلى المنزل عبر طريق مدروزٍ بالحواجز العسكرية.

في البداية وجدتُ نفسي في ساحةٍ أضرب يدي على جيبي فلا أجد البطاقة، فأنكب على الرصيف أفتش بلاطه لعلها سقطت هنا أو هناك. انكبابي يتحول إلى زحفٍ. زحفي يتحول إلى استلقاء يائس. قطعٌ حادّ حدث هنا. لا أفهم طريقة مونتاج المنامات، لكنني فجأة أجد نفسي في الكراجات، والشعب أيضاً كله في الكراجات. كانوا غاضبين، لهم وجوه عنيفةٌ، قاماتهم عاليةٌ جداً. كانوا كما أشتهيهم شعباً ثائراً، وصورتهم هذه أكثر ما تصلح لبوستر يري العالم ترجمة حية لعبارة «الشعب يريد». لكنهم جميعاً يمدون بطاقاتهم كي يعبروا البرزخ العسكري العملاق. متراس كجدار بين الأرض والسماء، تنحني قرب فجوةٍ لتمر بالبطاقة، فتجد متراساً ثانياً بالفجوة ذاتها، وهكذا حتى تعد أربعة عشر متراساً بأربعة عشرة فجوة عند كل منها مخلوقٌ حارسٌ، أطرافه بنادق. كل بطاقة هوية صليبٌ، كل

متراس وقفةٌ على طريق جلجلة البيت، وكل واحد من الشعب مسيحُ نفسه، ولا خلاص.

في عودة أخرى إلى المنام الأسود وجدتني في طريقٍ شديد التعرّج، كتلك الطرق في سباق السيارات الالكتروني. أقود سيارة جبارةً برعونة لم تخطر في بال مصممي اللعبة أنفسهم.

في وضعٍ مثاليٍّ كهذا تهيأ لي أن سيارات الأمن ستلاحقني كما تفعل سيارات البوليس في اللعبة، ولن يكون عليّ في المطاردة إلا التمتع بتدميرها سيارةً سيارةً. لكن الذي حدث أن سيارتي وخيالي توقفا أمام رجل أمنٍ قبيحٍ له خصيةٌ في حنجرته. نزل بلور النافذة من تلقاء نفسه فنظر إليّ بعينين كلٌّ منهما فوهة مسدس، وأخبرني إنه يعرف عني كل شيء، وضحك ضحكةً شيطانيةً لأني ذاهبٌ إلى حتفي، ثم حدث القطع الكابوسي.

عند الكراج المحاط بمحلات الخمور والدخان المهرّب وجدتُ هيام، ابنة الجيران، تبيع الفلافل. تذكرتُ عهدي بملاحقتها، وعهدها بصدودي.

إذا كانت على سطح منزلها تراني أصعدُ سطح منزلي وأبدأ الاستعراض، فإما أرفع الأثقال، وإما أسير على سياج السطح.. فتنزل. إذا ذهبت إلى المدرسة ألحقها بصمت، مع ذلك ترسل إخوتها حين تعود لينطقوا كل مسامةٍ في جسمي من الضرب. في أول عهد الشباب قطعت طريقها: «هل تتزوجينني يا هيام..؟»، فقالت بقرفٍ لن أنساه: «انقلع».

حين أحسّتْ أنني تركتها بدأت مناوراتها، فمرة ترسل المراسيل، وأخرى تتذرّع بطلب رغيفٍ من بيتنا، وثالثة تزور أخواتي لتشرب معهن القهوة.

في تلك الفترة بدأتُ أخجل من ذوقي، فالحياد العاطفي جعلني أرى شعرها الذي كنتُ أظنه ذهبياً مجرد أليافٍ لعرنوس ذرة، وأن عينيها الوسيعتين في مخيلتي ليستا إلا ثقبين، بينما جسدها المربع لا يجعلك تعرف قدامها من ورائها..!!

جمال هيام الذي حاكى خيال مراهقتي بدا لي نوعاً من التخفيف لتوتر دراما الكابوس، وفرصةً نادرةً لعدم إيقاظ العائلة بصراخي كما بات يحصل مؤخراً. هيام جميلةٌ كنقطة في مصحفٍ، قلتُ لها ما تقوله الأمهات. عيونها شهلاء برموش يتزحلق عليها الضوء. فمها فستقٌ مقشّر ورضابها ماء قراح.

هيام صورة الأمل.

شدتني إليها وراء مقلى الزيت وقبلتني، فانتعشتُ وشعرتُ من قبلتها بالشبع، كانت قبلة كقرص فلافل مقلي بزيوت الفردوس، وقد هبط عليّ من السماء ككبش اسماعيل.

سلمتها يدي بأمانٍ من يرافق حبيبته، لتعبر القطعة العسكرية المجاورة للكراج. مشينا دقائق قصيرة تحولت معها براكات العسكر أكواخاً، والأشواكَ شقائق نعمان. دقائق قصيرة ثم وجدتني وحيداً بلا هيام، وبلا ذلك المشهد الدافئ. قطعٌ مونتاجيٌّ جائرٌ جعل خوفي مضاعفاً من كابوسٍ أعرف أنه لن يتركني بسلام.

ما شأني بهيام؟ أريد الوصول إلى البيت وليست معي هوية. خرجت دورية من تحت الأرض واقتادني عناصرها إلى حفرة، لكن القَطْع الذي رماني إلى الصحو، لو بريقٍ ناشفٍ، لو بقلبٍ يرتجف، لو بمثانة تغلي.. كان رحمةً.

استمرت كوابيس الأسبوع هكذا، ولم تظهر هيام إلا مرةً واحدةً. رأيتها عند الحاجز تحمل بارودة. أمرت جنودها باعتقالي، ودون أيّ قطْعٍ وجدتني في غرفةٍ بادرةٍ بمواجهتها عاريةً، من بين ساقيها يتدلى قضيب. انتزعَتْهُ فتحوّل إلى كرباجٍ راحت تجلدني به.

لا يزال الكابوس يتكرر حتى بتُّ متأكداً أنه الحقيقة، بينما الحياة مجرّد فواصل من الوهم.

يتناقص زيت القنديل كل لحظة بينما أراقب الانطفاء ليلة رأس السّنة.

أنتظر نفاذ الزيت لأنام رغم قابليتي النفسية للسهر، فما الذي سأفعله في العتمة المقبلة بعد دقائق؟

شيءٌ غامضٌ يبقي القنديل مشتعلاً رغم انتهاء زيته، ويبقي اللهب أصفر مائلاً إلى البرتقالي في المنتصف، أزرق قليلاً في حوافه السفلى. شيءٌ غامضٌ لا يجعل الوقت يمر، ولا يترك الظلمة تأتي..!

أبقى معلقاً في لحظة العبور بين سنتين، بين اليقظة والمنام، بين الإعتام والإضاءة.

في الحقيقة ما من غموضٍ، فالوقت يمضي فعلاً، ودليلي إيقاع المدفعية التي جعلت نفسها بندولاً لساعة الكون، ساعة الموت.

في الحقيقة أنا في الظلام منذ ساعات، فالقنديل انطفأ والسنة الجديدة أعلنت دخولها في أماكن أخرى من العالم، لكن الظلام الكوني الذي يحيطني مُعْدماً شعوري بما حولي، يفاقم، من حيث لا أدري، شعوري بي، فأقاوم العدم الأسود بتخيل لهب من

قنديلٍ لا ينتهي زيته، كي لا أسلّم بأنني عالقٌ في شراك هذا الليل.

انقطاع الكهرباء يقذفني إلى سؤال قاتل: هل ذهب العالم وتركني، أم أنني ذهبتُ وتركت العالم..؟

لا تعرف هذه العاطفة البدائية إلا في الحرب. فمع الظلام وتوقف الحركة البشرية تدريجياً، حتى وصول الكون إلى سكون كلّي، تعاودك هواجس الإنسان القديم. بل كأنك هو رغم هذه القرون كلها. أو كأنه اصطفاك لتنقل بالكتابة حيرتَهُ حيالَ نهارٍ واضحٍ يعطيه نفسه بالكامل، وليلٍ يكاد يسلبه حتى نفسه. نهارٍ سيحلّ مشكلته بالأبجدية، وليلٍ سيظن أنه حلّ إشكاله باكتشاف النار، ليكتشف في لحظات الاحتدام أنه ما يزال كما كان قبل وجود الله.

على ضوء القنديل المشتعل جواتك تبحث عن خارجك فلا تعرف شيئاً. غياب الخارج غيابك. ضوء الخارج وضوحك.

هذا الظلام ليس مجازاً، هو الحقيقة.

نحن أحطناه بمجازات الأنوار والثورة، ومجازات النيران، ومجازات الأقمار والشموس، كي نخفف بعضاً من وطأة الحقيقة. ألسنا نحن البشر أكثر من تؤذينا الحقيقة؟

لو كنتُ الذئب الذي يعوي في الخارج لما كانت هذه أسئلتي. ربما لدى الذئب أسئلة نهارية بحتة..!

ليلي نهارُ الذئب، ونهارُ الذئب ليلي.

يا لها من لحظة لتفاهم الإنسان والحيوان..! يا لها من لحظة للغة الكونية..!!

سأعوي، سأعوي حقيقةً لأوقف مجاز القنديل المشتعل، وعلى الذئب نهاراً أن يجد الكلام كنوع من الحل..!

في زمنٍ مضى كان انقطاع الكهرباء يشعل تباشير هذا الخوف. في ذلك الانقطاع الجزئي كانت المخاوف جزيئة، لكن المشهد يكتمل الآن.

كنتُ أشعر الجنّ يعرّسون في حديقة البيت حدَّ سماعي طبولاً وزغاريد. فأشعلُ مزيداً من الشُّموع الوطنيّة سريعة الذوبان، وتخطر على بالي، حيث لا بال لي، فكرةُ الحرب.. أقول: حتماً، بعد قليلٍ، ستلعلع صفارات الإنذار، وستبدأ الطّلعات الجويّة.. فلأهربْ إذاً. هل في الشوارع ضمانٌ؟ فلأنمْ بسرعةٍ، ليس في مستطاع إنسان انتظارٌ عاديٌّ، فكيف بانتظاره لقذيفةٍ ستحيل البيت غباراً. فلأنمْ. هذا سبيلي. علّني إذا متُّ أموت نائماً. وحده النّوم ينجي من الآلام. (في زمن الحرب عرفتُ أن النوم أصعب ما يكون). إذاً.. هيهات هيهات مثلكَ يا أبا العلاءِ هربَ النّومُ عن جفوني هربَ الجبناء..

أفتح كتاباً للتّسلي فتزوغ العينان من رفرفةِ لهب الشموع. كيف كان الأسلاف يقرؤون على ضوء سراجٍ؟ أستدعي صورة امرأةٍ من فيديو موبايل خلاعيّ. أمسِ أحبَبْتُها، بالكرش والثديين العملاقين وطيات اللّحم في الخصر.. أمس ثقبتني صرخاتُ لذّتها على شاشة هاتفٍ، وكأنّني من يضاجعُها. ولا تنصاع لأمر خيالي الصور، وأبقى على حافة الحافة، ومن حولي سريعةً تموت الشموع.

أسمعُ تلقيم مسدّسات، صليلَ سيوفٍ، حوافر خيلٍ.. وظلّي يغادرُ المكان الّذي يجب أن يكون فيه على الجدار. حتّى الظلال

غدّارةٌ، وساعة الغفلة وقتها الذهبيّ للانتقام..!

كلما انقطعتِ الكهرباء يعود لتعذيبي خوفٌ نسيته ورائي، في مخابئ الطّفولة فأبلّلُ السّروال.

عاجزاً كنتُ أتوّحد بالسّكون القاتم، ولا قوة لدي في استخدام تلك التّميمة: «ألاّ أيّها اللّيل الطّويل ألاّ انجلِ»، ولا في الغناء: «يا ليل..». عاجزاً.. عاجزاً وكأنّ الكهرباء وحداتُ دمٍ مُنِعَتْ عن جسدٍ لا يتوّقف نزيفه. لكنها حين تأتي أنسى كل ذلك.

اختلف الأمر الآن، القصف نقله إلى فضاء أبعد من الرعب العادي. صار الليل لئيماً. ثم إن المؤذن تأخر عن إعلان الفجر. في مثل هذا الوقت يشعل مكبرات الصوت ويترك لتجويد عبد الباسط عبد الصمد مهمة ترويض هذا العماء، وحين يطفئ المسجّل ويبدأ بالتكبير يخف كل شيء.

أينه؟

عليه أن يفعل هذا كالعادة، علّه يُفهم المدفعية الحقودة أن اسمَ الله أكبر.

للمرة الأولى يفوت موعد الأذان، كل المساجد فوتته معاً، وللمرة الأولى أطلبه بكل هذا الرجاء أنا الذي كنت أبدي الاستياء منه. أنا الذي كنتُ أعلّي صوت الأغاني كنوعٍ من الرفض لمثل هذا التطفل على هدأة الليل. وأنا الذي أطلبُ الأذان الآن لن أسامح المؤذنين الجبناء، وفي الغد، إن جاء الغد، سأوغر قلوب الناس عليهم.

المدفعية كفر، ولا بدّ من دينٍ يواجه هذا التجديف على الحياة،

على نوم الناس، على مناماتهم.

حتى الذئب توقف عن العواء.

أصعد سطح المنزل، وبكل كفري وخوفي وإيماني المفاجئ، أطلق الأذان، أطلقه قوياً كعواء قطيع من الذئاب، أطلقه تحدياً للمدفعية بالذات، ولأن الفجر لا بد أن يأتي: «الله أكبر.. الله أكبر..».

أبي قال لسامرين جددٍ مشيراً إلى أبي خلدون النائم: «لا أثق بأحدٍ ثقتي بهذا الرجل». أحدهم علّق على الفور: «طبعاً.. كيف سيخونك وهو نائم طوال الوقت؟». لم نعرف لمَ يأتي أبو خلدون إلى السّهرة ما دام، منذ عشرين سنةٍ، يغرق في النوم فور وصوله، ليقوم، مع انفضاض القوم، ليمكل نومته في بيته.. أحياناً يصحو ليضحك كي يوهم الآخرين أنه يتابع ما يحكونه، فعلها مثلاً حين كان الدكتور خالد يتحدث بقهر: «عبرنا النهر ألف مرة، ليس مرتين فقط كما هو المستحيل لدى الفلسفة. عبرناه واكتشفنا أن الزمن ماء آسن».

الجميع رمقوا أبا خلدون نظرة توبيخ فتظاهر أنها ضحكة من المنام، وعاد يشخر بينما أكمل الدكتور حديثه: «هذه الأشياء حدثت هنا، كلها حدثت هنا. ألم ننزح نحن الذين لجأنا في ٤٨ إلى الجولان فوزعونا على مدن البلد لرغبة اسرائيل؟ ثم في ٦٧ بينما نزح أهل الجولان نزحنا أيضاً إلى دمشق. كم نزوحاً في هذا؟ كل الأشياء التي حدثت تعود لتحدث الآن. في لجوئنا أسعفتنا وكالة الغوث بالطحين والسكر والسردين والخيام. في نزوح أهالي الجولان أسعفت الدولة نازحيها بأشياء مشابهة، وإن لم تكن بكرم الوكالة. الآن يحدث النزوح إلينا، وفي الغد يحدث منا، ويحدث معه أن الكل صاروا وكالة غوث لأننا كلنا صرنا

فلسطينيين. يا جماعة اللعنة التي أصابتنا ستصيب العرب، ثم تصيب العالم. هذا العالم سيذوق طعم لعنة فلسطين». استيقظ أبو خلدون وعدّل جلسته. شلّنا حديث الدكتور خالد عن الكلام، صار الكلام له وحده فتابع: «قولوا لي متى لم يكن في هذه الأمة نازحون أو لاجئون؟ في ٢٠٠٣ لجأ العراقيون، وفي ٢٠٠٦ تبعهم اللبنانيون. آلاف مؤلفة من أهالي الجزيرة السورية أجلاهم الجفاف قبل سنوات، ألم تشاهدوهم؟ الفلسطينيون لا أعرف كم نزحوا وكم سينزحون، ما أعرفه أنّ هناك نزوحاً وعلينا أن نذهب. نذهب ولا نعود. يا جماعة لا أحد يعود. إذا ذهبتم لن تنتظركم البيوت، الحرب لن تترك البيوت مكانها، الحرب تجعل المكان مكاناً آخر، لذا كل عودة هي ارتكاسة.. أقسم لكم أنني أرى في مناماتي أننا في بلد مجنون. الكل بهاليل ينطون ويصرخون ويخلعون ثيابهم ويأكلون الفضلات. الكل مجانين.. الكل مجانين..».

انطفأ القنديل. أخي مراد القريب منه نفخ عليه. كان يريد إسكات مجزرة الكلام، لكنه لم يحسب أن العتمة التي تلت ذلك الكلام المرعب تحوّلت إلى هرج راح يأخذ صرخات متداخلة، وزعيق حيواني.

انطفأ القنديل.. انطفأنا.. واشتعل الجنون..

قلتُ لصاحبي في المقهى: «أخشى وقتاً تصبح الاعتبارات فيه لصالح رصيد المرء من الاعتقال».

قال صاحبي: «أتمنّى الاعتقال فعلاً، فما من مصداقية لكل ما أفعله دون وسْم سجن الرأي..!».

على «فيس بوك» صفحات المطالبة بالمعتقلين عنوان يومي. «الحرية لفلان»، «اطلقوا سراح فلانة». تتكاثر هذه الصفحات بطريقة انشطارية توحي بأن الوطن سجن والشعب رهائن. جملةٌ كهذه كانت تضحكني عند ظهورها في نص من نصوص الأدب التحريضي، لكنها حين صارت واقعاً لم أعد أتوقف عن ترديدها.

نقيصة أصدقاء الواقع الافتراضي أنهم ما انفكوا يسلطون الضوء على أشخاص من الدوائر النخبوية التي تعرف بعضها البعض، في ظلم جماعيٍّ يطال عامة الناس الذين اعتقلوا وأُفرج عنهم، أو غيّبوا نهائياً، دون أن نسمع عنهم شيئاً.

قال صاحبي: «كان لا بد من صفحة الكترونية كبرى بعنوان «الحرية للشعب» نعمل جميعاً على دعمها، بحيث نتمكن من متابعة ورصد حركة الاعتقال بالكامل، ودون جور تتحقق المساواة، لضحايا الدفاع عن المساواة، فليس معقولاً أن يُبرز واحدٌ ويُنسى مائة أو ألف».

الفاشيون الجدد لم يكتفوا بجعل المدارس والمشافي سجوناً، ولا بتحويل البيوت التي يحتلونها غرفَ توقيف.. بل راحوا يجعلونها منصات إعدام. يُعدم الجريح على سريره بمشرط الجراحة، لا فرق بين الطبيب والسيّاف. يُجهز على الأطفال والأمهات في غرف نومهم، ولا بأس بأن تُرشّ البيوت بدماء سكّانها بدلاً من الماء.

أخذوا أصدقائي للسجنْ

لكنهم فى ليالي الحنينْ

يقبلون، لنشرب كأسينِ

فى البار ذي الردهة الخاليةْ

فإذا دقتِ الساعة الثانيةْ

صفَّق الخدم المتعبون

فاختفى أصدقائي وهم يضحكون

- نلتقي ثانيةْ

نلتقي الليلة التاليةْ-

أنشد مع شاعري أمل دنقل وأتذكر وجه صديقي الشيوعي الذي تخلّى الحزب عنه. صديقي الذي أوصلته أفكاره الماركسية إلى السجن تخلّى عنه الماركسيون، ولم يتنازلوا إلى مجرد ذكره في

جريدتهم. الغريب أن أرشيف الأحزاب الشيوعية العربية مليء بقصص مقايضة السلطات حرية السجناء الشيوعيين مقابل توقيع البراءة من حزبهم. ما حدث مع صديقي، وسواه، أنّ الحزب في أرشيفه الجديد وقّع براءته من الرفاق.

الشيوعي العنيد قال إنّه ما من سبيلٍ إلاّ أن تفعلَ ما تفعلهُ، وتقولَ ما تقولهُ من منطلق أنّكَ شيوعيّ بلا حزبٍ، وبروليتاريّ بلا رفاق..!

سكنتني قصة عن رجل حموي، من بين كل القصص التي عاد بها الأصدقاء من الأقبية، كان في العاشرة من عمره حين حدثت المجزرة الشهيرة في المدينة. يومها اختبأ في قبو إحدى البنايات بين تلة جثثٍ حديثة الذبح، وغاصت قدماه في دم ملأ الأرضية بسماكة ٢٠ سم. ورغم الدم العاتي والخوف الحيواني اشتم عطر امرأة كانت مقتولةً قربه، لكنه لم ير جثتها. عطرٌ نسائيٌّ رهيبٌ هبّ فُجَاءَةً فطار خوفه واختبأ حتى نجا.

الرجل الحمويّ لم يحسب حساباً أن تلك الرائحة التي أنقذته في الطفولة ستعود ثانيةً، لكن من مكان ما في أعماق ذاكرته الشميّة لتنقذه من التعذيب، وبسببها سيبتسم بينما جلادوه يلهثون، وسيشعر بحرارة حارقة في عز الشتاء حين يصلبونه في فناء ممطرٍ، بينما هم في الفرو والصوف يرتجفون برداً.

في المضافة الديمقراطية تتربّع حياة، بسمرتها الشديدة ونحولها المخيف. كانت ترقص في الأعراس، تملأ المجالس بنكاتها الجنسية، وتتندر بكل شيء. مجيئها نوع من النعمة في هذا الوقت.

ثم تأتي القديسة، هكذا يسمونها، مع أنها أقرب إلى الزندقة في حديثها ومسلكها. تكفر كثيراً، لا تتوقف عن لعن الأديان والاستغفار، تتباذأ، تضرب، نهرب منها، تلحقنا، ثم نسترضيها خشية دعائها الذي لا يخيب. مرةً دعت على أمريكا أمام أهل الحارة وحدث في اليوم التالي ذلك المصاب الجبّار الذي يعرفه العالم باسم «١١ أيلول». القديسة في تلك الفترة أعلنت براءة تنظيم القاعدة، وأسامة بن لادن، وأنها وحدها المسؤولة مسؤولية كاملة عن كل ما جرى، كما أنها على استعداد لمواجهة جورج بوش الابن بذلك.

في آخر نومة لأبي خلدون أطلق عوّاد قذيفة ستطغى من قوتها، في اليوم التالي، على خبر الاشتباك الذي أودى بكثيرين من الحاجز العسكري القريب. بفخرٍ ممزوجٍ بالزهو أشاد عوّاد بأخته الكبيرة التي ربّت أولادها أفضل تربية، لكنّ الزكام جعله يلفظ الحروف مدغمةً عندما باشر بكشف السر: «أختي تمسك زباب الأمور».

استلمت حياة السوالف بعبقرية في ليلة مزدحمة بالرواة. الكل

ينافس الكل على استلام دفة الحكي والإبحار في أمواج المضافة التي تلوّنت ظلالنا فيها من شغف الكلام. كنتُ أرى اللون ينصع في ظلّ الراوي الأبرع. ظلال حمراء وخضراء وزرقاء، وظلال تمتزج فيها الألوان.

ساعدت حياة غريزتُها في المجاز، فعندما كان الجميع يتناوبون حكايات أحقر رجل في المنطقة، ذهبت إلى تمثيلِ سوئه، في لحظة تصعيد درامية، بامتلاك الخراف التي يربيها صفات الضباع. بعدها بدأت في فتح ملفاتها السرية كما تفعل عادةً. روت لنا أنه حين مات أبوها غابت تسعة أيام في بلدة أهلها. غابت ناسية بيتها وأولادها وزوجها. نسيت كل شيء إلا حزنها. في اليوم الذي عادت فيه كان الهياج قد أكل خصيتي زوجها، فحاولت إفهامه بأنها مكسورة القلب ولا تستطيع تلبيته. تحيّون وحاول اغتصابها فعضته وهربت إلى غرفةٍ وأقفلت الباب، فمد قضيبه يائساً وهو يصرخ: «عضوي يريد تعزية عضوك ليس إلا، لا تقفي ضد الواجب يا بنة الناس..!!».

عضو زوجها بطل القصص أكثر من زوجها نفسه. لا لشيءٍ غير أنه فاعلية زوجها الوحيدة، فهي استولت على أفعال الحياة كلها. هي من تشارك في المناسبات، أول الراقصات في الأعراس، وأول النادبات في المآتم. أول من تزور المريض، وأول من تبارك نجاح الطالب.

عملت في خدمة البيوت طوال عمرها. عملها ذلك ولّد في نفسها نوعاً من التفاني في خدمة الآخرين. بأمومتها زاولت عملها كخادمة، ولهذا كان لديها وضع ماليّ ممتاز، فالأغنياء الذين عملت عندهم أوسعوها العطاء، وذلك مكّنها من القيام

بواجباتها الاجتماعية على أتم صورة. الهدية التي تقدمها حياة دائماً هي الأولى، ودائماً هناك من ينتظرها.

يومَ قررتِ الذهاب إلى العمرة أخبرت سيدة البيت الذي تعمل فيه إنها ستغيب مدة. السيدة قدّمت مالاً وطلبت منها أن تدعو في بيت الله بشفاء سيخ زوجها. حياة بدأت الدعاء فوراً من فرحها بالمبلغ الذي يغطي كل نفقات رحلتها، ثم سألت السيدة بقلق مصطنع «وأين الكسر في جسم معلمي؟ ومتى وضعوا له السيخ؟». السيّدة صحّحت أنها تقصد بالسيخ عضوه الذكري، وما من سيخ أو كسور. حياة ذهلت. أعادت المال بلا تردّد وانسحبت، وعند الباب قالت بخشوع: «أمام الله سأنسى زب زوجي، فهل تريدين مني تذكر أزباب الناس؟».

ولأن الشيء بالشيء يذكر ربطت هذه الحكاية بحكاية مشابهة حدثت معها في فترة الإيمان التي حلّت عليها آنذاك، لا سيما بعد عودتها من العمرة، حيث التحقت بشيخة لتلقي دروس الدين. الشيخة كرّست يوماً لنصح النساء بإرضاء أزواجهن لأنّ في هذا إرضاء لله. تلك النصائح أصابت قلبها الصغير لتقصيرها الكبير مع زوجها في كل النواحي، وتداركاً للأمر بدأت منذ وصولها إلى البيت بتدليله. لم تعد تتركه بلا طعام، بل إنها في كل ساعة تأتيه بكأس شاي، أو صحن فواكه، وكلما سألته عما يريد كان جوابه الوحيد «أريدكِ يا حياتي». فتعطيه نفسها وتشعر بالرضا أكثر كلما لمست سعادته. لكنّ رجلاً من طينة زوجها الذي لا يعرف شبعاً أخذها في ذلك اليوم سبع مرات، حتى صرخت حين جاء يطلبها للمرة الثامنة: «حلّ عني.. غضب الله أهون من هذا العذاب».

في تلك الليلة كانت للقنديل ولحياة ظلاّن ناريان، فوق وجوهنا وفوق الجدران، على حدّ سواء..

حينما تسمع عن بنتٍ في الثالثة مقتولةٍ ومرميةٍ على قارعة الطريق، لا تستطيع إلا أن تكره، لا تستطيع إلا أن تحقد، لأن البنت القتيلة تأخذ على الفور صورة ابنتكَ، فسواءٌ أولدتَ أم لم، وسواءٌ أفهمتَ أم لم؛ تصير لك نفسية مثكول.

مع البنت القتيلة لا تعود مهمّة الصبغة الأيدلوجية للقاتل، ولا يعود مهمّاً موقعه في السّلطة أو في الثورة، المهم أنّ الحياة نفسها قد ذبحت، وأنّ أرض الله على اتساعها ليست سوى قبر.

في كل العواصف التي أودت ببناتٍ صغيراتٍ أكثر ما يميتني صرخات الحيارى: كم هي جميلة..! كم هي بريئة..!

صحيح هي جميلةٌ، ولها وجهٌ يصلح بديلاً للشروق، وبريئة كابتسامة الله.. صحيح صحيح، لكنّها ميتة..!

لا مفاضلة للبنت على الولد.. لا، لكنّ جوهر المسألة أن وعينا دأب على تمثيل الحياة في الأنوثة. الحياة في جدارية الوعي الكبيرة امرأة تتزاحم فيها الأمومة والخصب، السماوي والأرضي يتحدان سوياً في جسدها الذاهب ليكون سيرة جماعية لأحلامنا. لكن صعود صورة البنت قتيلة إلى الجدارية الكونية يعني إسقاط أنانيتنا القائمة على الأخذ، أخذ الأمن والحب والحنان من

الأمومة، وأخذ المتعة والرغبة من الأنوثة، كي تعلو غيريّتنا، كي نحسّ بأنّ ما أُخذ منا هو سرّنا العميق؛ أن نعطي.

لا نزال نئد البنات. مرةً بضرب الكفّ بالكفّ تحسراً على موت واحدةٍ في الشارع القريب، ومراتٍ تلو المرات على موتهن في الأخبار، ثم ننسى كل ذلك مع بناتنا الباقيات بيننا، فنشبعهن أمراً ونهياً وزجراً.. وقهراً.

تأملوا بناتكم الصغيرات تجدوا طلاقةَ ألسنة لا تملّ تفجير اللغة، وطاقةَ قلوب تطير بالبيوت إلى أعالي الأعالي. تأملوهن والأولادَ وستجدوا، ولا بد من التعميم هنا، أنهم أقلّ.

الأولاد يعبرون عن أنفسهم بالجسد. البنات منهجهن الروح.

تأتي الأنثى من رحمها حاملة رسالة فتعلّمنا، ويأتي الذكر أمياً فنعلّمه.

حين تُحْرجنا البنت نبدأ بقمعها، بردم صفاء الينبوع فيها، مقابل إطلاق الأعنّة للولد. يكبران كلاهما فتتحول البنت إلى الهشاشة والخوف، فيما تُنْضج الحرية الممنوحة بلا حدود شخصية الولد، ليكمل عملنا القهريّ.

نحن مجتمع لا ينتج نساء، في الملمح العام، لأننا نعمل على تطويع أرواحهن وتدجينها، بمعنى آخر؛ نئدهن رمزياً.

رغم ذلك تحتفظ البنات بروح الثورة كامنة، ولا يقلن براكينهن إلا لمن يفهم لغة البركان.

في الثورة بدأت البنات أيضاً بإسقاط الأنظمة، وخلافاً للجميع توزعت جهودهن على جبهتين؛ جبهة النظام السياسي وجبهة الوعي الاجتماعي.

المساحة الحرة التي أتيحت للاختلاط بين الجنسين في التظاهر والتنسيق والإضراب والإغاثة، ومن ثم في النزوح وسكنى العراء.. خلقت معها قيماً أكثر حرية بخصوص الجسد. كذلك كان للمغالاة في العنف الدموي على المدنيين، وفي انصباب الموت على الحياة، أن تولّد ردة فعل طبيعية تعلي من شأن الجسد كحصن ضد الموت، وكأداة مقاومة تديرها الرغبة بالحياة.

الطفلة القتيلة هي بناتنا الحيّات، بفارق الدم الواضح والتهشيم اللذان لا يقبلان نقاشاً. والطفلة القتيلة، أيضاً، مستحيل الحبّ المعطوب، أمل الأمومة الناقص، ما لم نوقف القتل حقيقياً ورمزياً في آن.

يوم أخرجتْ بنتٌ بلا رأس من تحت الأنقاض تابعتُ على «فيس بوك» حفلة إكمال التمثيل بجثتها. كانت المناحة التي تبكيها، وعربدة الغضب على سلاح جو النظام الفاشي الجديد الذي قصف منزلها، استمراراً لقتلها. رسام كاريكاتير انتقم لي، رسم البنت ذات الثوب الأزرق كاملة الرأس في صورة نعوتها، بينما رسم المتفرجين على صورة النعي ناقصي الرؤوس. الرسام أراد قول شيء تحريضي يخص سكوت الناس عن ذبح لا يقابله إلا حزن وغضب، دون أي فعل واضح. أنا رأيتُ في الرسم ثورة البنات التي أشتهي.

أبو طارق خلع الخوف كحذاء ومشى شجاعاً بكامل حفاء قلبه، وبات يتحدث مع أهله وأصدقائه على التلفون بلغة مكشوفة.

قبل مدة كانت الاتصالات تعتمد على شيفرات بين الناس. ترسل زوجةٌ لزوجها «بدأ العرس»، فيعرف خطورة الوضع، لأن شيفرة العرس تعني إطلاق نار أرعن وطائش. أقارب يطمئنون على أقارب آخرين فيقولون لهم: «نشرنا الغسيل وطارت ثلاثة شراشف». الشراشف أكفان.

لغة التشفير كانت تشهد خروقات، أكثرها في فترات اختناق الناس، فيصرخ صديق لصديقه على الهاتف: «ذبحونا.. الجيش والمخابرات ذبحونا».

أبو طارق لم يحتج هذه اللغة أبداً، منذ البداية يحكي الأشياء مكشوفةً، ويسخر من كليمه إذا ذهب إلى التشفير، وبسبب هذا تخلى معارفه عن الاتصال به خشية تورطهم الأمني نظراً لمراقبة الاتصالات. حين انتبه إلى هاتفه المحمول الذي لا يرن راح يتصل بالجميع معيداً عبارة واحدة: «لا تتصل بي لأني أخبّص! أليس كذلك..؟ أنت معارض وجميعنا نعرفك، ونعرف أنك حاقد على الرئيس وعلى نظامه، فلماذا تخاف من قول الحقيقة..؟».

حين طمى السيل في «الحجر الأسود» وخرج سكانه هاربين لم يبق إلا أبو طارق، كان الجميع مرغمين على الاتصال به ليضعهم في صورة الوضع، وليطمئنهم على بيوتهم. من جهته وجدها فرصة ذهبية للانتقام فراح يخبرهم بجرأة فائضة: «لا يوجد شيء.. أنا الآن أسهر مع الثوار.. تفضل»، «الأمور صعبة اليوم قليلاً، كلفني الرجال بحراسة أسرى من أمن النظام العاهر»، «اسمعْ صليات الرصاص، إننا نحتفل بإعدام جاسوس».

بعد هذه الحملة الشريرة اتفق الجميع على أن يظل واحد فقط على الاتصال معه، كي لا يحدث مكروه جماعي. والغريب أن أول تلفون بعد الاتفاق كان مُحبطاً، فأبو طارق استخدم لغة التشفير: «الدنيا بحر، والمراكب راسيةٌ على الشطّ».

صوته كان صوتاً آخر، ضحكته غائبة، والمجاز الثقيل السمج لم يستطع أن يخبئ حقيقة أن أبا طارق نفسه في مكان آخر. مكان لم يتح كثير من الوقت ليتحوّل فيه إلى جثة مجهولة.

ركضتُ من رأس الحارة لأخبر أهلي بخبر الجماعة المسلّحة المجهولة التي أجهزت على المصوّر. نزلوا من السيارة البيضاء وفتحوا عليه المسدسات، ثم رحلوا قبل أن ترحل روحه.

المشهد الذي طالما رأيته في أفلام الأكشن، وطالما سمعت ما يشبهه خلال سنتين، بدا رهيباً لدرجة تجعل الوصف قاصراً ولا يبرح المثل الذي تؤكد الأيام قوته: «من سمع ليس كمن رأى».

ركضتُ دون أن أدري هل أنا الراكض، أم طفل الأخبار الذي كنته يوماً في هذه الحارة التي لم تعد أخبارها ترضى بالإخباريين القدامى..؟

ركضتُ لشعوري بأني جدير بنقل الخبر مع رأيٍّ على شكل سؤال: هل الشبهات كافيةٌ لإنهاء حياة؟ هل مهمة الثورة هي تصفية هؤلاء الصغار الذين مهما ارتكبوا من اخطاء لن يستطيعوا تغيير مجرى الأحداث؟

في الحارة رأيتُ لفيفاً حول رجل غريبٍ يده تنزف لكنه هادئ تماماً. أخبروني أن زوجته ضربته بسكين.

واصلت الركض إلى البيت وقد صار في جعبتي خبران عاجلان، لكنني بمجرد فتح الباب وجدت العائلة تتحدث عن المصوّر

الذي اغتيل. سألتهم كيف عرفتم الخبر، قالوا إن بنات الحارة الواقفات على السطوح نقلنه بالتتابع بين البيوت.

لا بأس، لدي خبرٌ آخر عن نازحٍ طعنته زوجته قبل قليل. ضحكوا. لا.. لا. الأمر أنها كانت ستطعن نفسها، فأمسك النصل مُؤْثِراً جرحاً في اليد على حياة قد تزهق بسبب كآبة، هو نفسه يعرف أيّ منقلبٍ تؤدي إليه مرارتها.

قبل أن أسقط في حيرتي تساءلتُ في سرّي: ما داموا يجيدون الوصول إلى كل شيء، ويجيدون تفنيده بهذه الاحترافية، لماذا تركوا الإعلام الرديء يتحكّم بمصائرنا إلى هذا الحد؟

كان الشتاء القديم يقيم شريعة العدالة. ببساطة يصبح الجميع كالجميع. يأكلون البطاطا والبصل بعدما موّنوا منهما كميّاتٍ كبيرةٍ خلال موسم الصليب. كما يتدفؤون بالطريقة ذاتها. مدفأة حطب أو منقلٌ مشتعلٌ في كل بيت.

شتاء الحداثة فرّق الناس. جعلهم أشتاتاً، من لديهم المكيفات والشوفاجات والمدافئ الكهربائية، ومن ظلوا على ناموس شتاء الأسلاف، ليس لأنهم يريدون هذا، بل لأنه ما أُريد لهم.

هذا الشتاء أعاد الشريعة القديمة، وعاد الناس سواسية في برده أمام انعدام مصادر الدفء.

في غمار الزمهرير انهمك الناس يقطعون الأشجار. غاراتٌ جماعيةٌ تشنّ على البساتين والمزارع بالفؤوس والمنشارات. صواريخ الحدادين والبلاطين تحوّلت إلى منشارات كهربائية. السيارات الزراعية التي كانت تستخدم لنقل الأسمدة والشتلات باتت تنقل جثث الأشجار.

الطلب الأكبر ارتكز على الزيتون والتين، تليها أشجار المشمش، فيما اختار الكسالى الإجهاز على السرو. أشجاره كبيرة، والتعب الذي تنفقه على واحدة يعادل الطاقة التي تقدمها عشر زيتونات.

السيارات الحديثة المحملة بالأخشاب في صناديقها الخلفية، مع أغصان خضراء لم يسمح الوقت بتنظيفها، وكذلك النساء «حمالات الحطب».. مشهد تراجيدي سواء أفكرت بالطبيعة أم بالناس. فعلى الحالين الكارثة هي هي. والكارثة حدثت من قبل. اللاجئون الفلسطينيون الذين نزلوا على ضفة النهر الأعوج قبل خمس وستين سنة أبادوا الأشجار. كانت هناك غابات من الحور والصفصاف والزيزفون. أينها الآن؟ تدفأها الناس.

ماذا بوسع سكان الخيام القدامى أكثر مما فعلوا؟ وماذا بوسع الشعب الذي سيكون عما قليل من سكان الخيام حين تنتهي المناطق الصالحة للجوء أن يفعل أيضاً؟

الأشجار قرابين.

الأشجار تعرضت للتجزير كالبشر، كالحيوانات. الكائنات الحية صارت أسرة واحدة من جديد، بعد عصر من تفكك أسرة الكائنات.

القوات الأسدية قتلت غابات كاملة في كل مكان. جرفت صبّار «المزّة» القديم لئلا يختبئ فيه الثوار. أحرقت غاباتٍ في ريف اللاذقية بحجة إيوائها الثوار. الغوطة بدأت إبادتها قبل عصر الثورة، هي وجبل قاسيون، ونهر بردى، أدخلتها سياسات الفساد في الشيخوخة، ليتم الإجهاز نهائياً عليها في الوقت الراهن.

هي حرب على الطبيعة أيضاً. ومن حسن حظها أنه ليس في وسعها تأسيس هيئات ومجالس وتنسيقيات وائتلافات. ولكم أتمنى لو في مكنتها تشكيل كتائب مقاتلة. الأشجار والحيوانات

لا يجب أن تتبنى الثورة السلمية، هي بالذات من يجب أن يتولى الثورة المسلحة، لأنها بالذات القادرة على إرشاد البشر إلى شرف القتال، فلا قتل بدواعٍ دينية.

لا يمكنني نسيان مشهد جبل محروق في الساحل السوري، وفي أعلى رماده تشرع عملية بناء قصر. صاحب القصر هو محرق الغابة،لا شك أنه فعلها في سبيل الاحتيال على قانون البناء. يوم رأيته كتبت في يومياتي: «تحترق الغابة فينمو قصر المسؤول».

خسة الحكومات لا تتبدّل. في بداية الثورة كتبوا في لوحات إعلان الشوارع دعماً للاقتصاد الوطني: «كُلْ مما تزرع».. «البسْ مما تنسج».. إلخ، إلخ.. كتبوا ذلك بعد عقدٍ ونيّفٍ من اقتصاد السّوق الذي لم يُبق زرعاً ولا صناعةً ولا بطيخاً، منذ حوّل الدولة إلى شركة، وحوّل الاقتصاد إلى ميراث للأسرة الحاكمة.

خيالي كان يصر على تحوير العبارات الإعلانية فيقرأها هكذا: تدفَّأْ على خشب التابوت.

هذا ما يحدث حين تموت الأشجار مكسّرةً، دون أن يتركوا لها الموت، على دين أهلها، واقفةً. دون أن يسمحوا لها بمزاولة كبريائها الأخضر.

الأشجارُ قرابين.. ومعبد إله الدم صحراء وبرد.

مثل ناجٍ من مجزرةٍ لا شهيّة لدي للطّعام أو الخروج أو الكتابة. لا شهيّة للشّهيّة..!!

ما دام القتل جاريّاً على قدمٍ وساقٍ تتسابقان في إبادة الطّيبين، تصبحُ قابليّة الجسد للتّلاشي حتميّةً. حقّاً.. أيّ معنى يكمن وراء تطهير الحياة من هؤلاء المساكين الذين يحبّوننا دون أن يعرفوا أن يقولوا ذلك بغير الابتسامة والدعوة البريئة لكأس شايّ أو حبّة فواكه..؟! أيّ معنى غير النّهاية..؟!

مثل ناجٍ من مجزرةٍ أقول إنّ أفضل ما يجب فعلهُ هو ألاّ أفعل شيئاً.

في سأمي من الكتابة عن هذا الشتاء هربتُ إلى أوراقٍ كتبتها في الصيف، فوجدتُ في رأس الصفحة هذه العبارة: «الجو لزجٌ، والمدافع تواصل القذف».

وقتذاك تواطأت حرارة الجحيم والمدفعية، في أبشع صفقة عذابٍ، على جلودنا فكادت تذيبها تعرّقاً، ومن فقدان التّوازن يرى الواحد، في لحظة التّشويش الكليّ، أنّ ما يخرجُ من المسامات ليس سوى الدّم..!!

مثل ناجٍ من مجزرةٍ تركتُ لوجهي البائس تقمّص ملامح قتيلٍ

أرتني فظاعة موته صفحة في الإنترنت.. تركتُ لجسمي النّازف دماً، الحريةَ في تلطيخ الملاءة، والحرية في الانضمام إلى كوكبة الألم المشاعيّ. غريبٌ أنَّهُ ما من شيءٍ يكون مشاعيّاً إلا الألم..!!

مثل ناجٍ من مجزرةٍ تركتُ إنسانـ(ـي) يندحر، وتركت حيوانـ(ـي) ينفقُ.. تركتني وحسب.

علا صوت المسجد القريب. تركتُ أوراق الصيف وصعدتُ سطح البيت علّني أرى لحظة امتزاج اسم الله في الأذان بغياب الشّمس، علّني أرى لمرّةٍ واحدةٍ رفّ الطيور التي تحمل ضوء الشّمس إلى ما وراء الأفق.

صعدتُ، وتمشيتُ على السطح، ودوني بطاح طفولتي وقد صارت كتلة صماء من الباطون: مكانَ ذلك البيتِ كان ملعب كرة القدم، ومطرحَ تلك المزرعة كانت «ملاجئ زكريا»، تحت ذلك الأتوستراد دفنوا الوادي.

محوتُ البيوت والمزارع والأتوستراد الجديد. وإذ الخيالُ منهمكٌ في إعادة تصميم الجغرافيا مرّتْ غيومٌ عابرةٌ شاغلتني عمّا أفعل، وقبل أن أتركها لشأنها لأعود إلى شأني فإذا بها تتشكّل بأسماء الغائبين، على طول السّماء وعرضها، وإلى ما لا نهاية. قرأتُ أسماء رأفت حسن خليل وأبو الورد وندى حسين. نظرتُ تحت، ما من تحت. أنا في الملعب الترابيّ، أنقّي مع الصبْيَة ترابَهُ من الحصى بغية خوض المباراة الكبرى بلا جراحٍ في الرُّكَب.. وداخل المعلب الترابيّ رأيتُ السّماءَ تتساقط بعنفٍ. تتساقط وتتساقط، قطعٌ زرقاء لا تكفّ عن السقوط، لكنها لا تصيب أحداً بأذى. وعندما لم تعد في الأعالي سماء انتبهت إلى أنه لم تعد أرضٌ أيضاً، ولم يعد أحدٌ إلاي ورفاق طفولتي الموتى؛ رأفت حسن خليل

وأبو الورد وندى حسين.. كانوا يركضون وأقدامهم تكتب أسماءهم.. منذ البداية الأقدام تكتب، وعلى الأرجح أن فكرة اللغة حينما ابتدأت كانت على شكل خطواتٍ تتهجاها الأرْجُل، ولم تكتمل إلا مع تعلّم أول الكائنات الركض.

تذكرتُ فرناندو بيسوا، شاعر البرتغال الكبير، كان يكتب في ساعة سمّاها «ساعة الأشباح»، وبحسب الشّبح الّــذي يتقمّصه يوقّع النص، سواء كان ألفارو دي كامبوس أو ألبرتو كايرو أو ريكاردو ريس.. أيّاً يكن، المهم أن يأتي الشّبح ومعه القصيدة!! المهم أن يصبح المتوّحد أشخاصاً لا حصر لهم!! أشباح رفاق طفولتي الموتى في الملعب المزال كانت لها ملامحي حين مضوا، فلا عرفتهم ولا عرفتني، ولا استطعتُ ترجمة الخطوات التي كتبت أسماءهم.

بيسوا صنع بأشباحه عالماً لايزال منقبو الأدب يبحثون عن أثرٍ لإثبات وجودهم. أما أنا فمجرّد شبحٍ يبحثُ عن وجود لبيسوا ما لأُثْبِتَ أنني موجود حقاً أو ميتٌ حقاً، ولستُ مجرد شخص يتصرّف مثل ناجٍ من مجزرةٍ.

القنديل على حاله، قهوة أبي على حالها، السامرون على حالهم، ثمة ما يوحي بجمود في المضافة. أرتابُ بأنها جامدةٌ وخيالي من يحركها.

حين دخلتُ دبّت الحركة، وكان الميجر رباناً يقود مركب السوالف في بحر الظلال.

لا أحد يعلم من أين جاء الميجر بلغته الفصحى، لكنّ الجميع يحبونها، وبها كان يعربد على جهل الآخرين الذين يردّدون عباراته كأقوالٍ مأثورة. مثل تلك الجملة التي قالها لحفار القبور في جنازة عازف اليرغول: «لا تعامل الحفرة بفجاجة. عاملها برومانسية فاليوم ندفن فناناً». أو الجملة الشقية التي استطاع بها مدارة فضيحته الكبرى حين سَكِر وتحرّش بخالته العجوز: «إذا وصلت إلى الثمالة.. لن تعرف العمة من الخالة». أو شرحه الأرعن لمشروع «الشرق الأوسط الكبير»: «شرق أوسط مفتوحْ.. كل شيء من الله ممنوحْ.. يصحو الفلاح ويجد الحقل مفلوحْ.. يفتح الجزّار المحل ويجد الخاروف مذبوحْ.. كل شيء مسموحْ.. إلا وجود المتخلف ممدوح».

الميجر بلغته تلك يقص حكاية عن إنشاء أول مقبرة في المخيم. حين كان الأهالي موزعين بين عائلتين كبيرتين، ولا مجال لهم إلا

الاشتراك في كل شيء، طبعاً بنوع من الندية العائلية، إذ تسعى كل من العائلتين إلى التفوق على الأخرى. وبهذه الندية شقوا الطريق قبل أن تكون هناك دولة لتفكّر بذلك، وبها عملتا على التسابق لمساعدة المتضررين من الفيضان الكبير. وأشياء أخرى من هذا القبيل كبناء المدرسة، ومن ثم المستوصف. وحين امتلأت المقبرة القديمة اشتروا أرضاً وجعلوها وقفاً للموتى، لكن العقلية ظلّت على ما هي رغم كل ما جرى.. ففي أول عهد المقبرة الجديدة، انقلب باص كبير على طريق الجبل، ومات كل من فيه، وكان موتى الباص، الوجبة الأولى للمقبرة الجديدة، من العائلة نفسها.. العائلة الأخرى عقدت اجتماعاً سرياً احتجاجيّاً على هذا الاستيلاء الأرعن على المقبرة، ولم يكن لدى كبيرهم ما يقولوه إلا: «لقد ملؤوا المقبرة ونحن نتفرّج..!!».

المفاجأة التي لم تعد مفاجأة أنّ الميجر دائماً ينهي قصصه بإعلانه أن ذلك الرجل هو «المتخلف ممدوح» الذي يظلّ ينكّل له بعبارة ختامية أخرى: «وهو الآن يصلى ناراً ذات سعير.. مع إخوته من الأبقار والحمير».

عما قليلٍ ينتهي الكاز الذي ادخرناه. أمي التي أعادت الحديث إلى الهمّ وعدتنا بالظلام قريباً. القديسة أخبرتها بحلٍّ قديمٍ عن جمع الزيوت المستعملة بعبوة وإشعال فتيلٍ فيها. الميجر استعاد وضعه كخبيرٍ عسكريٍّ وشرح لنا كيفية الاستفادة من المازوت في الإضاءة، حيث يمكن خلطه بالملح والحمض. اعترضت النساء على هذا الخيار لأنه سيلوث الجدران بالهباب، لكننا ضحكنا من تعليق حياة التي بدت كحولية وهي تقول «أليست هذه خلطة البيرة المكسيكية..؟».

العتمة قادمة إذاً. الليل الكبير سيحلّ قريباً. ترى لماذا إذا جاء

القتلة، أيّ قتلةٍ، لماذا تلمع خناجرهم؟ لماذا يضيء الرصاص؟ لماذا لا تكون خناجرهم عتماء، ورصاصاتهم بلا ضوءٍ؟ هل الضوء قاتلٌ، والعتمة رحيمة؟

العتمة قادمةٌ، لا يهمّ ما دام الإنسان في البيت، في المكان الوحيد الذي يستطيع المشي في ظلامه دون خوف.

تحنّ إلى كأسٍ يروّض وحش الوحدة فلا تجدها. محلات بيع الخمور أغلقها الإسلاميون تباعاً، وتركوا أدمغتنا تتحول إلى طبول.

اختطف الخمّار الأعرج لأيام، وحين ظهر أعلن توبته دون كلام عن غيابه. أُحرقت بقالية خَصَّصتْ بعض الرفوف للمشروبات الروحية. الخمّار المسيحي هجر محلّه من تواتر التهديدات.

قبل هذا كلّه طالبت لجنة محلية شكّلها الأهالي بإغلاق خمارة «كهف النسيان» التي افتتحها صاحبها في بيته. لم يقبل الناس تحويل حارتهم إلى ملتقى للكحوليين.

دمشق نفسها بلا خمارات. آخر خمارة باقيةٌ هي خمارة أبي جورج في باب شرقي. الحرب على الكحول بقيَتْ سريّةً، وكان يقودها رأس المال الديني الذي استطاع بطريقة قانونية الاستحوذ على «فريدي» ذاكرة سكريي سوريا، وجعلها محلّ شاورما.

خان الشيح أثبت أنه أقوى من دمشق بصمود خماراته التقليدية طويلاً، وسقوط «كهف النسيان» كان مفهوماً من الجميع، فالكحوليون سبّبوا إرهاباً محلياً قاد الأهالي إلى حملة الإغلاق وقتذاك، لكنّ ما يحدث اليوم هو تطهير للحياة من بيرة «بردى»

وعرق «الريان»، وكيْف أصحاب الكيْف.

في عصر الخمارات الذي يبدو بعيداً، ربما بسبب الحنين إلى كأسٍ، كان الشرب في الخمارات الشيحيّة محفوفاً بالخطر، فعليك قبل الذهاب الاستعداد لاحتمال مشاجرة، أو الانقذاف خارجاً مضروباً بسكين.

خلال التردد على تلك الأمكنة السحرية أخذت المتع فقط، ولم تسجّل ذاكرتي أي مكروه، بل حدث أنني ساهمتُ في حلّ بعض المشاكل من الاحترام الذي انتزعته منهم فلقبوني بالأستاذ. وصار للأستاذ خاطراً بينهم.

لدى تلك المخلوقات حساسية زائدة من التكبّر، يثورون كالوحوش حين يواجهونه، ويصبحون رفاقاً رائعين في حال انعدامه. لعله شعورهم بالاضطهاد الدائم، أو لعلهم سكرجيون جداً من التكبّر الذي ظلّ يسحق أرواحهم في العمل والحياة والعلاقات.

الحانة القديمة لصاحبها الأعرج مجرّد غرفة واطئة السقف فيها مصطبة إسمنتية تلتف بملاصقة الجدران بدلاً من الكراسي. إذ تدخل يوسعون مكاناً، يرفعون كؤوسهم، يقدمون السجائر، يتبادلون الأحزان. أما الأعرج فيظل حاضر الذهن لضبط الحديث، وكثيراً ما يبدو مذيعاً يدير برنامجاً اجتماعياً، والذين على هذه المصطبة جمهور الإستديو. غالباً ما يحاول تشتيت الأحاديث التي يستشعر فيها خطر مشاجرة بسؤال غريبٍ، عن اتجاه الريح وهو يشير إلى مروحة تنقية الجو المنطفئة على الجدار، والتي يحركها الهواء بعبث. أو أن يوقف المسجّل الذي يبث أغنيةً، قبل

الوصول إلى صوت المغني، ليختبرهم بمن الذي سيغني..؟ وفي الفترة التي يخصصها لأم كلثوم يترك المقدمة الموسيقية تكتمل

ثم يفحص السميعة: ما الأغنية..؟ هذه الأسئلة تقود إلى رهان، حيث يدفع الخاسر شراب الرابح، فيما يطالب الخمّار الأعرج بزيادة في التسعيرة على الجميع، رابحين وخاسرين ومحايدين، كضريبة ثقافية.

لدى حانة ألفرد الأمر مختلف قليلاً، فالرجل المسيحي الذي تسمح القوانين له برخصة بيع الكحول، جنى مالاً هائلاً منذ فُتحت خمارته. ألفرد تعلّم خلال سنوات عمله هنا ألا يُدخل إلا أشخاصاً يعرف أنهم لن يثيروا مشاكل، بينما أولئك المطرودون من رحمته فيتحكم ببيعهم أو لا، لدرجة تدعو للتساؤل عن قدرته على ترويض هؤلاء الذين لا تتوانى سكاكينهم عن بعج الكروش، لكنها أمامه تتحوّل إلى الضراعة.

ألفرد يقلي سمكاً ويصنع سَلَطات، لكنها، رغم شدة الطلب عليها، مقرفة.

ألفرد يستغل المديونين من زبائنه لتوصيل الطلبات. ولعل وصول الزجاجة إلى طالبها مع رجلٍ يترنح تبدو جزءاً من طقس الشرب نفسه.

في عرس أحد الزبائن هطل الكرم على ألفرد فظلّ يسقيه ويسقيه، وظل العريس يشرب ويشرب. وخلال ذلك كانت العروس قد هيّأت نفسها لليلتها الليلاء في مخدع الزوجية. أهل العريس جاؤوا وانتزعوه انتزاعاً ولم يبالوا بنسيانه نفسه، ونسيان أنه يوم زفافه. دفعوه إلى غرفة النوم ليتفاجأ بوجود امرأةٍ عاريةٍ، فراح

يصيح وهو يغطي عينيه بيديه: «تستّري يا أختي.. تستّري يا أختي..».

«كهف النسيان» بدأ بسطة خمور في الخلاء، وحينما انشهر فتح صاحبه محلاً من غرفة مقتطعة من بيته. منح المكان ديكور كهف، فرشه بالطاولات نكاية بخمارة الأعرج، ثم كتب الاسم على لافتة، ووضع في صدر المحل لوحة لديك يصيح. حين سألته عن مغزى ذلك أجاب كفيلسوف: «الديك رمز الصحو.. الديك عدونا... ونحن هنا كي نحاربه».

نتذكّر الحياة آن زوالها، في لحظة تحولها إلى مرثية. الاستذكار والرثاء بحاجة إلى خمرٍ للتغلب على المرارة. ربما، الآن وغداً، لن يبقى لنا إلا تساقي المرارة.

منذ استشهاد ابن عمي أثناء عبوره لمنطقة تقاطع نيران وحال جدّتي إلى الأسوأ. قبله بقليل ودّعت ابنتها الوحيدة التي رحلت في ظروفٍ حرجةٍ، وبصعوبةٍ لا متناهية استطعنا دفنها في منطقة «الحجر الأسود» حيث تسكن.

آلام المفاصل أقعدتْهَا على كرسي ذي عجلات، ولم تعد تغادر بيت ابنها الذي تقيم عنده إلا لتجلس إلى النّهر الذي بات مُقعداً مثلها، فقبل عدة سنوات اخترعت الدولة اختراعاً جنونياً، حيث صبّتْ مجراه بالباطون.

الجدّة التي بالكاد ترى لا تعترف بما حلّ به، وبالنسبة لها لا يزال على حاله، بل لا يزال ماؤه صالحاً للشرب كما كانت تعرفه في صباها.

الشباب ذهبوا وجلبوها في سيارةٍ، ثم حملوها في حرام ليوصلوها إلى المضافة لتسهر وإيانا، فدنو أجلها لم يعد تهديداً بمقدار ما بات قراراً داخلاً في حيز التنفيذ.

جدتي بسيطة ولا تقول أشياء ذات بال كالجدات اللواتي يفضنَ حكمة. هي بالكاد تحفظ بضعة خراريف من تراث أهلها، وبالكاد أيضاً تعرف أحوال الماضي، فطوال الوقت كان لديها ما

يشغلها غير أخبار الناس، لهذا جسدها يتكلم أكثر منها. تعبها حكمتها.

بشكل غير متوقع قالت: «مكتوبٌ علينا بناء بيوت لا نسكنها». قالت هذا فقط، ثم أردفت بأشياء غير مترابطة عن رجلٍ شركسي نصح والدها بألاّ يمكل بناء بيته في البلاد، وأنّ عليه تحضير الجِمَال للمسير القادم. غموضُ كلامها أرغمني على إجراء مسحٍ ميداني مع العجائز الباقين، لأفهم المعنى الكامن في هذه الجملة.

الكل اتفقوا على حكاية ذلك الشركسي، ونصحيته لوالد الجدة لم تلق بالاً، فسوى السخرية التي قوبلت بها، استمر قصّ الحجارة وتعمير البيت الذي ما إن صار جاهزاً للسكنى حتى هجروه.

والد الجدة أصابه ندمٌ مريرٌ ليس لأنه أكمل بناء البيت، بل لأنه لم يهيّئ جمالاً للرحلة. ومنذ وصل إلى أول تجمّع للاجئين وحتى بدأ الناس يبنون بيوتاً جديدةً ظل ممسكاً بخيمته، وصار يتحدّث بلسان صديقه الشركسي بألا يبنوا بيوتاً لأنهم سيرحلون إلى أراضٍ أخرى.

أخذت البيوت أشكالاً مختلفة قبل أن تصل إلى ما هي عليه الآن. في البدء كان الخيمة، ثم جاء الانتقال إلى طور دور الطين. هذا الطور كان بحد ذاته بناءً دائماً، فالبيوت الطينية عقب كلّ مطرةٍ تحتاج إلى ترميم. ولم يسترح الأهلون من ورشات الشتاء إلا حين مرّ بهم رجلٌ علّمهم طريقة أكثر عملية، حيث وضع فوق جدران الطين غربالاً ورشّه بالرمل المعالج بالماء والكلس. ظلّ هذا متّبعاً حتى وصلنا إلى عصر الخرسانة، فحدثت عملية إعمار شاملة. وفي الحقب الأخيرة حدثت عملية إعمار تحولت خلالها البيوت أبنية طابقية.

الأهلون ظلوا يبنون بيوتاً لا يسكنونها. فالسكن فيها مؤقت. في القديم كان يقال سنعود إلى البلاد، وفي الوقت الراهن بإمكان برميلٍ متفجّرٍ تحويل تعب الأيام إلى كومة رمل، كما بإمكان معركةٍ أن تجعل السكّان بدواً رحُلاً.

في علم نحو المخيم: البيوت مبنيّة للغياب، ونحن مبنيّون للمجهول.

ظل العالم يحاول إقناع أدمغتنا العنيدة أنّ البيت الحقيقي هو القبر، والباقي محطات ليس إلا، ولم نكن لنقتنع بأقل من حرب.

والد جدتي ظل معتصماً بعمود خيمته لا لأنه سيعود إلى بيته الأول، بل ليعطي نبوءة الشركسي ما تحتاجه.

سؤال أخير أسألكم إياه، فالأهل هنا يقولون لي «لا نفهم على ربك» ويشيحون عني: «هل الشركسي هو ميلكيادس الغجري في «مائة عام من العزلة»؟ هل لدى أحد من أبناء المخيم صحائف سحرية كالتي تركها ذلك الغجري لأعرف هل العاصفة التي تعلن سيادتها على العالم هي العاصفة ذاتها التي محت «ماكوندو» من الوجود؟»..

وصلتُ إلى طبريا سيراً على الأقدام. مشياً قطعتُ المسافة بين المخيّم والجولان، ثمّ توغّلتُ باتجاه البحيرة لأقطعها سباحةً. سبحتُ حسب وصفة الميجر؛ بهدوءٍ.. بهدوءٍ، دون تفكيرٍ بالمسافة كي أتغلّب على المسافة. الميجر يكذب فالكل يعرفون أنه لا يجيد السباحة أصلاً، رغم ذلك ظلّوا يستمعون إلى شطحاته، ولا سيما قطعه البحيرة ذهاباً وإياباً سابحاً على ظهره.

في الماء الذي سار عليه المسيح جعلتني مشاعري المختلطة أرى في نفسي الميجر سابحاً. انتفخ بطني كرشاً ميجريّاً، تكور وجهي بالوناً ميجريّاً، فطفوتُ على الماء فيما أفكّر بقصص الميجر عن طبريا؛ عن قطيع البقر الذي يرعى في ظلّ سلحفاةٍ؛ عن ثمرة البطيخ التي تُشبّع عشرين نفراً؛ عن قريةٍ لكلّ امرأة من نسائها فرجان.

ثم وصلتُ أنا لا الميجر. وجدتُ حماراً فركبته إلى القرية التي صارت مستوطنة إسرائيلية، لم أبال بفكرة المكان المزال ما دامت الأرض هي ذاتها. الغرابة كانت في البيوت التي لاحت من بعيدٍ كما هي موصوفة في حكايات المخيّم، وخصوصاً في المضافة، والتي سأتأكد منها حين أترجّل: هذه دار المختار قاسم كما حكت عنها زوجته، تلك دارة آل محيسن كما هي لكنها مهجورة.

إلى جوارها تجري عملية بناء قصر. أثار استغرابي أنني لم أثر استغراب أحد. أتراني صرتُ طيفاً دون أن أدري؟ تلمّستُ نفسي فوجدتني ملموساً ككل شيء هنا: كالطريق، كورشة عمال البناء، كابتسامة البنت اليهودية التي تمر الآن.

تفقّدت خريطة الذاكرة فإذا بالكثير من تفاصيلها ناقصة؛ دورٌ سمعتُ عنها وعن أهلها الباقين؛ عينُ ماء لا وجود لها؛ وعرةٌ صخريةٌ ليست سوى مرج أخضر يمشطه الهواء.

ركضت إلى دار جدي.. هي ذي: ثلاث غرف حجرية على نسق واحد، أمامها شجرة زيتون. إنه المشهد الذي يأبى تقديم نفسه دون موسيقى تصويرية؛ أنظرُ إلى الغرف فتلفحني أولى تقاسيم يرغول غائب. أتطلع إلى الزيتونة فيتصاعد اللحن ليأخذ ملامح «الدلعونة» أولَاً بأوّلٍ، ومع وصول العزف إليها يتضاعف الصوت، يرغولاتٌ عديدة تدخل على الخطّ، وتلتحق به في هارموني يجعلك تتأكّد أن العازفين فرقةٌ من الجن.

يقطع اللحنَ الانتباه إلى سيارة حديثة تتفيأ ظلال الجدار الغربي، ومجموعة من الرجال يلعبون الورق في الفناء.

أتلطى خلف صخرةٍ وأراقب. شيءٌ غامضٌ يعيد إليَّ القصّة المدرسيّة القديمة «شجرة اللّيمون الصّغيرة».

على الصّخرة نقشٌ لقلب حبٍّ عتيق، في اللّحظة التي أراه فيها يسيل دمٌ، ولا أجد الوقت للتّدقيق، هل النزيف من القلب أم من جلد الحجر؟

عدتُ إلى مراقبة الصّهاينة الأوغاد فتذكّرت باسم، بطل القصة، حين يعود إلى الأرض المحتلة ويعانق شجرة اللّيمون التي زرعها

بنفسه، والتي لم تعد صغيرةً مثله. أكثر ما ألحّ عليّ هو مونولوج الشّجرة حين عرفته من رائحته ومن ملمس يديه اللتين زرعها بهما، فتمنّت لو أنّ أوراقها تتحوّل إلى رصاصٍ يخترق صدور هؤلاء اللّصوص.

نظرتُ فإذا بشجرة الزّيتون بعيدةٌ ولا مجال لمعانقتها، ثمّ إنّ بطلة قصّتي شجرة ليمون لا زيتون. لا فرق، المهمّ أن تكون هناك شجرةً. قطعَ تفكيري صوت الصّخرة «ابقَ خلفي». ثمّ راحتْ تتدحرج رويداً رويداً، وحين أوصلتني إلى الزّيتونة عانقتُها وعانقتني. وقتها انتبهوا فهبّوا إلى أسلحتهم لكنّها سبقتهم بصلية رصاص من أوراقها الخضراء أردت الجميع في مكانهم. من الغرفة الوسطى خرج شاب يحمل رشّاشاً صغيراً وفتح النّار تجاهي، لكنّ الشجرة ألقت بنفسها عليّ درعاً واقياً، ثمّ بصقت ورقةً ثقبت جمجمته ليسقط مثل شيءٍ بالٍ.

الصَّلْيَة اللّعينة التي أطلقها ذلك الوغد كانت كافيةً لتعلن عن استنفار. جاءت التّعزيزات سيّاراتٍ وجنوداً ومروحيةً. جاءت بالطريقة التي شاهدتها في فيلم «يد إلهية»، وبطريقة الفيلم نفسها تحوّلت شجرة الزّيتون إلى زوبعة رصاص وقذائف وصواريخ جعلتْ، خلال دقائق، كلّ شيءٍ خردةً.

السّينما والقصص على حقّ!

عندما دخلتُ الدّار أنامني الحنين، أنامني بطمأنينةٍ نادرةٍ، ففي الخارج شجرةٌ تقف كالطّود.

في المنام شاهدتُ باسم بكوفية الفدائيّ، كما صوّرته الرّسومات المرافقة للقصة، يرقص مع شجرة الليمون الصغيرة على أنغام اليرغولات التي استقبلتني. كانت الشجرة امرأةً لكنّها من

ورقٍ أخضر، ويداها وساقاها يدان وساقان لكنهما من خشب الليمون.

صحوتُ على الضجيج. استطلعتُ فإذا بي بين أفراد العائلة الأولى للبيت: الجدّ كما عرفته في الصَّور، الجدّة وكأنها العمة التي ستولد بعد عشر سنين، والتي ستكون هكذا بعد عشر سنين أخرى. كذلك كان هنا الأعمام الثلاثة الذين ولدوا قبل الهجرة.

نادتني الجدة: «يا باسم».. فانضممتُ إلى عشاء العائلة. لم يكن الزمن زمن القصة، أو زمن العائلة في المضافة، أو حتى زمني أنا الآن!! كوكتيل من أزمنة ثلاثة لكنه حقيقي.

حين انتهى العشاء ذهبت وأطعمْتُ الفرسَ الشّقراءَ فحدثتني بحديثها: «أتعرف لم أنتَ معي الآن؟ لأنّه لا بدّ من حصانٍ للحكاية، فالخيل زمان الحكاية، والحكاية مكان الخيل. لكنكم حين تتركون الخيول لكي تؤنس البيوت وترحلون لا تتركون الخيول خيولاً، كما لا تتركون البيوت بيوتاً. على الأقل لن تستأنس الخيل ما لم تجد مكاناً أَلْيَقَ من هذا الذي تقول فيه: «أطعمتُ الفرس الشّقراء فحدثتني». عليك أن تعرف أن الفرس الشّقراء أو الزّيتونةِ أو الصخرة؛ امرأة البيت».

فتحتُ باب الزّريبة فانتصبتْ على قدميها وصارت امرأةً، وقبل أن تمضي التفتت إليّ فإذا هي جدتي، ثمّ راحت تعدو في الضباب.

ركضت إلى الفناء فإذا الزيتونة تصير جدتي، تلتفتْ إليّ لفتة الفرس ذاتها وتغيب.

على المصطبة التفّ جمعٌ صغيرٌ حول قهوة الجدّ وقنديل كازٍ هو قنديلنا. الميجر كان بينهم، بفارق أنّه نحيلٌ جدّاً، يروي عن بلاد

أخرى فيها قطيع بقر يرعى في ظلّ سلحفاةٍ، وعن ثمرة بطيخها التي تُشبع الواحدة منها عشرين نفراً، وعن إحدى قراها حيث لكلّ امرأةٍ من نسائها فرجان..

وجد أبي أبناء عمّه يرتجفون من البرد فبكى. أبي رجلٌ بكّاء، أمي مثله. سأضيف جملةً لا علاقة لها بالسياق، لكنّني أشعرها طوال الوقت: منذ مطارحتهما الأولى وماء جسديهما دموع. من تلك الدموع نبتنا، وإلا لم للعائلة عيونٌ تومض بحزن عصيّ على التفسير..؟

أولاد عمّ أبي جاؤوا إلى المدرسة التي تستضيف المرحّلين. أبي آذن تلك المدرسة، منذ ربع قرن وهو آذن في المدرسة. الأولاد لم يكفّوا يوماً عن السخرية مني لكوني «ابن الكنّاس» أو «ابن الشطاف». ألمُ تلك السخرية تحوّل إلى احترام فائق لكل المستخدمين أينما عرفتهم.

أحد أعضاء لجنة الإشراف على النازحين انتقد أبي بشكل لاذع لتركه أولاد عمه المساكين في البرد. وصلوا متأخرين بعد امتلاء الصفوف، فبنوا لهم مع رفاق دفعتهم خياماً في الباحة. لم تكن خياماً مئة بالمئة، إنما شوادر قماشية لُفَّتْ حول مظلة التوتياء التي يستفيء بها التلاميذ عادةً.

ذلك المشرف قاد أبي إلى أبناء العم، وفور رؤيتهم بكى. أخذهم إلى البيت وظل يشكر المطر الذي غطى دموعه طوال الطريق إلى البيت.

مع تعارفنا بهم فاجؤونا كم هم دراويش. خطر على بالي شعب كامل من الدراويش فتساءلتُ بيني وبيني: هل الدراويش كثيرون إلى هذا الحدّ، أم إن الظروف العصيبة ترمي البشر إلى الدروشة..؟

في سهرة ذلك اليوم راح أحد أولاد العم الثلاثة يغني كسكران، تاركاً أخويه غارقين في التدخين كما لو أنهما يتنفسان من التبغ. ابن العم غنى فدمج موالاً بآيةٍ قرآنيةٍ بغمغماتٍ غير مفهومةٍ. غنى ما يمكن أن يعتبره أقل متشدد تجديفاً خطيراً، مع أن الغناء الأهبل مثير للشفقة. أخواه انطربا فقاما يرقصان وكلٌّ سيجارته في زاوية فمه. المغني توسطهما وأنشد بعضاً من النشيد الوطني بلحن الأذان.

تذكرتُ نتفاً سمعتها من أخبارهم. باع أحدهم برّاد البيت بثلاث علب سجائر. واحد آخر أعطى جهاز التلفاز لسائق تاكسي مقابل توصيلة.

تذكرتُ أيضاً قصة زواج المغني بدرويشةٍ مثله أفهمها أنها زوجة له ولأخويه، وكادوا يكونون آباء ولدٍ واحدٍ لولا تدخل الجيران.

المخيم امتهن تجارة غير مسبوقة: استيراد الأسى..! وصرنا، بمعنى أو آخر، سوقاً مثاليةً لهذا المنتج.

الإخـوة لا يزالون في هرجـهم، والعائلة الجمهور تتابع الاستعراض ببكاء صامت.

جعلت العاصفة الصباح رمادياً. لطالما أطنبتُ في مديح هذا الجو، حين يطول الصباح يوماً كاملاً، لكن الآن لا، ما من مجال بعدُ للبحث عن جماليّات أمام برد يتجلى بهيئة قاتلٍ خنجريً، لا يهم إن كان من الحشاشين أو حراس الهيكل أو الشبيحة، المهم أن القتلة يصيرون واحداً. هذه العاصفة إرهاب، هذا الثلج تكفيري. أصبحنا في سجن كاملِ الإغلاق، لم يذهب أحد إلى عمله ولا لجلب حاجيات البيوت. ما من حاجيات أصلاً، وإن وجدت فما من مالٍ يكفي لشرائها، وفوق هذا نجرب الجوع والقذارة أيضاً. لا خبز، لا ماء، لا كهرباء، والقصف متواصل. مع كل قذيفةٍ يقفز الطفل إلى حضن أمه في اللحظة التي تفكر هي بحضنٍ تقفز إليه، فتراها تتشبث به بقوة خوفها، لا بالقوة المطلوبة منها لأجل الحماية والأمان. الأمر يومي والرعب طبيعي. هذا صحيح، لكن العاصفة توقظ في الإنسان خوفاً أكبر من ذلك الذي تخلفه الحرب التي تصبح عادية مع الوقت.

العاصفة تنضح منا خوفاً بكراً لم تتدرب القلوب على إيقاعه.

قصفان إذاً. قصف الطبيعة وقصف الجيش.

قال رجل حمصي ألِفَ أصوات الانفجارات إنه يطمئن إلى توتّر الوضع، يأمن اللحظة العاتية، فهكذا يكون كل شيء على ما

يرام، الخطر الكبير هو الصمت. الليلة الصامتة هي ليلةُ قلق. ربما تخفي مداهمات. المداهمات تنتهي إلى مجزرة أو إعدامات ميدانية. الصخب يُبقي احتمالاً ما للحياة فقد تخطئك القذيفة، قد تتوه عنك الرصاصة، لكن الصمت موت. من يستطيع النوم وهو يعرف أنه سيموت؟ الرجل الحمصي الغائب منذ سنة في اعتقال غامض نقل إلينا الأحداث التي شهدها حيه، حي «باباعمرو»، ومنذها أراقب تكرار القصص في نُسَخٍ لا تتوقف. الرجل الحمصي فاته أن يشهد اجتماع الحرب والعاصفة ليقول ما يمكن أن يفيدنا، هذا غير أنه مثل جميع الحماصنة بارع في تحويل التراجيديا كوميديا. البرد قتل حتى الفضول.

منذ مدة شاهدتُ في المخيم فضولاً لم أسمع عنه في مكان، هل المخيّم مكان فضوليّ؟

أتساءل لأنّ الاشتباك الذي يدور منذ الصباح على الشارع العام، أول المخيم، لم يمنع الأهالي من التجمهر على طول الطريق، وعلى سطوح المنازل، ليراقبوا النار ويعدّوا صليات الرصاص ويتباروا في تسمية الآليات العسكرية.

أهو فضول أم طيش؟

العساكر أطلقوا أكثر من مرة باتجاه الناس لتفريقهم، فالبعض لم يبق أمامهم إلا أن يقعدوا فوق الدبابة. علمتنا صفحات الإنترنت طرق السلامة، التلفزيونات لم تتوقف عن بث الإرشادات، القادمون من المناطق المنكوبة حملوا خبراتهم في الوقاية إلينا، لكنّ أهل المخيم بدوا غير مبالين بشيء من هذا، فالكبار والصغار، الرجال والنساء، كلهم في الخارج على مقربة من المعركة، لا يفعلون شيئاً سوى النظر بكراهية إلى الجنود والضباط، بطريقة

لا تحتاج إلى ترجمة.

حاولتُ أن أسأل أكثر من شخص عما يفعلون هنا؟ الكلّ أجابوا إنهم هنا لأن الآخرين هنا، مع ذلك حين عاد بعض الآخرين لم يعد بعض آخرِ الآخرين، ليستقيم التعليل بأنها مجرد عدوى.

يقال إنهم في غزة على هذا الحال. ربما كان الفضول مرضاً فلسطينياً، أعراضه الواضحة الذهاب إلى الموت قبل أن يأتي..!

المخيم مكان فضولي؛ لأنّ العيون مادة صناعته الأولى.

زمان الحرب مكانٌ واحد. لا يعود للذاكرة اسم.

زمان الحرب طاقة خرابية تحول المكان «عهناً منفوشاً». وليس مهماً بعدها أن نسمي المكان أو الزمان. كلُّه كعدمه، وبعضُه كمطلقِهِ.

السيدة العراقية التي جاءت في زيارة أشعلتْ عهننا المنفوش ألماً مسنن النصال، وأضافت إلى كسورنا كسوراً لم نكن نحتاجها.

جاءت من بغداد بحثاً عن ابنها الذي انتهت آثاره عند حاجز عسكري، وصار عليها قصقصة أثره في وقت صارت فيه الآثار عهناً منفوشاً.

السيدة العراقية سكنت عندنا مع عائلتها أيام الاحتلال الأمريكي للعراق. وقتها قذف الألم الذي جاؤوا به بيتنا الصغير الى ضفاف دجلة، فاكتمل انتماؤنا العراقي. لا أدري بالضبط ما الذي جعله عراقياً، ما أدريه أن أغاني العراقيين فعلت ذلك منذ أزلنا.

العائلة العراقية التي غاردت بعد مدة تركت ابنها الوحيد هنا لكونه مطلوباً لدى الاحتلال وأعوانه. وعادوا بلا انتباه أنهم تركوا في الشام ما يرشّحها لتصير عما قليل عراقاً ثانياً.

السيدة العراقية تستيقظ كلّ فجر، وتنطلق في رحلتها المكوكية في فروع الأمن بحثاً عن وحيدها، في الوقت الذي قلّصنا فيه حركتنا إلى حدود الضرورة، حتى بتنا نعيش في ما يشبه حظر تجوال.

السيدة العراقية أعادت إحياء سيدةٍ سوريةٍ ذهبت الى العراق بحثاً عن ولدٍ لها ذهب مع من ذهبوا لقتال المحتل الأمريكي. ومن البصرة عادت بولدها وهي تغني: «يا ريام الواردة شط العرب».

العراق أتاح لها، رغم الاحتلال، من خلال المقاتلين العراقيين أن تصل إلى هدفها، فالأمريكيون غرباء في النهاية ولا يعرفون المكان. لكن سوريا المأسورة بإرهاب نظامها سدّت في وجه العراقية كل الأبواب. شتان بين البحث عن سجين والبحث عن مقاتل!!

لكن لا فرق بين ما تقولها الأمّان؛ العراقية عن الشام، والشامية عن العراق؛ الدم هو الدم.

العراقيّة التي عاشت في الشام سابقاً لم تتحرّك كثيراً. التزمتِ المنزل وعادت دون أن تعرف البلد، ما من رغبة سياحيّة لدى اللاجئين. هي اليوم ترى الأمكنة التي طالما سمعت عنها، لكن في لحظة اغتيالها. وكل يوم تعود ببكائيّات مما ترى، إضافة لبكائيّاتها كأم معلّقة على مشنقة الانتظار.

السوريّة بدورها رأت العراق في تلك الرحلة للمرة الأولى، ورأت الأمكنة التي طالما سمعت عنها في لحظة اغتيالها. وكلّ يوم تنام على بكائيّات العراقيين الذين يستضيفونها، لكنهم كانوا يبكون نيابةً عنها.

السورية شاهدت أعوان الاحتلال يسلّمون المقاومين للدخلاء، وستحتفظ عيناها اللتان لو أكلهما الدّود لن تُمحى عنهما صورة العاشق البغداديّ مقاداً إلى الأسر. ذلك الرجل أمّن أموال المقاومة عند حبيبته، ولم يدرِ أن اللقاء التالي كمينٌ أمريكيٌّ، ستهرب بعده الحبيبة إلى مكانٍ مجهولٍ بمال المقاومة ومكافأة الاحتلال.

العراقيّة ذاقت المرارة من أعوان النظام الذين ما كفّوا يساومونها بالمال على إطلاق سراح ابنها، وبعدها يرسلون زعرانهم ليطردوها مع أمر نسيان البحث.

تحت ضوء القنديل الأمُّان معاً، تسيران، يداً بيدٍ، بين القذائف والصّواريخ والرّصاص، وتصيران قنديلين في «الأرض اليباب».

في عام ١٩٩٠ أعلنتْ أمّي حالة طوارئٍ منزليّة قصوى، واستنفارٍ عائليٍّ عامٍّ، من أجل حماية بيتنا السّعيد جدّاً من أيِّ خطرٍ يُحتمل وصوله إلينا ممّا سُمّي آنذاك بـ«حرب الخليج»!!

هزليّاً بدا الأمر بالنّسبة لنا نحن الأطفالَ، إلى درجة تخيُّلِهَا ببدلةٍ عسكريّةٍ وطينٍ يموّه الوجه.

كان الأب والأعمام (أحدهم كان هارباً من الكويت مع الكثير من الأكاذيب حقّقت له حضوراً مؤقتاً في ديوان الحارة) يتسمّرون حول الرّاديو على صوتٍ مطاطيٍّ غريبٍ لرجلٍ بتنا نعرف صورته (الّتي لا تختلف كثيراً عن صوته) متكئاً بمرفقه على الطاولة ومحدقاً بالمشاهدين كمن يتوعّدهم شرّ الوعيد وهو يجأرُ: «حصاد اليوم من قناة الجزيرة»، كما كان يهتف في سابق عهده هاتفه الجنائزيّ: «هنا لندن».. طبعاً هو جميل عازر الذي أتوّقع أنكم حزرتموه!!

لم نظفر، نحن الصغار، من كل ذلك المعمعان إلا بأسماء الصواريخ: «عدنان١» و«عدنان٢».. لظنّنَا أنّهما على علاقة بالمسلسل الكرتونيّ الشّهير «عدنان ولينا»، لا سيما وأنّنا عرفناه مدبلجاً باللّغة العربيّة في لُكْنةٍ عراقيّة محبّبةٍ ما جعل قناعتنا هذي تترسخ أكثر، هذا عدا عن كون هذا المسلسل شكّل الصّورة

الأقرب لمخيلاتنا الطفوليّة عن الغولة العمياء التي يسمونها: الحرب!!

أمُّنا، سلام الله عليها، ضاعفتْ ما تشتريه من الخبز كلَّ يوم، لتقسم الكميّة نصفين، واحدةً للأكل والأخرى تُيَبِسَهُا على رقعة قماش تحت الشّمس، من ثمّ تجمعها في شوال بجانب المؤن، باجتهاد نملة بشرية لن تتخلّص منه حتّى في أزمنة السلام المزعومة، وقتها كان كافياً كره الحرب لمجرّد أننا سنأكل خبزاً يابساً.

أشركتنا الأمّ في حملة الوقاية تلك، مستفيدةً من رشاقتنا وخفّتنا، بالأخصّ في عمليّة لصق ثقوب المنزل ببكرة لاصقٍ عريضةٍ سددنا بها فتحات الأبواب والشّقوق بين حديد الشّبابيك والمداخن و... البلاليع أيضاً.

المهمّة الشّاقة جاءتْ بتكليف من الإذاعة، ومن غير المستبعد أبداً أن يكون تعب البال ذلك جاء بجريرةٍ من جميل عازر، أو أحد شبيهيه من المذيعين الذين ظنّناهم أوفياء لـ«fm»، حينما أقلعنا عنها باتجاه الـ«tv»، هرباً منهم على الأرجحّ، فكان الخازوق المبشّم أنْ وجدناهم يُسَنْدِحُوْنَ بانتظارنا على الشاشات.

ما إن قالوا إنّا مُقبلون على حربٍ كيماويّةٍ ستُستخدم فيها غازاتٌ سامّةٌ وصواريخُ جرثوميّةٌ، حتى قامتْ أمّنا بوضعنا تحت الإقامة الجبرية مُصدِرةً البلاغ رقم (1) مُحَرّمةً الخروج نهائيّاً، ولم يقوَ أحدٌ على خرقه إلاّ الأب.. فأبونا لا يستطيع الغياب عن دواويين العشيرةِ حتّى لو قامت القيامة، حتى في حظر التجول الربانيّ!! لذلك اضطرت القيادة المنزليّة العليا إلى إصدار البلاغ رقم (2) الّذي يقضي أنّها لن تفتح الباب لأيٍّ كان وقتَ القصفِ، إيماناً منها أنّ موت واحد يبقى أهونُ ألفَ مرّةٍ من إبادة عائلة الصّغار،

والذين هلعوا، في الكوابيس، من صورةِ الأب الذي سيموت يائساً ومنبوذاً بينما يداه تطرقان باباً هو يعرف حق المعرفة أنه لن يُفتح.

غارت نساء الحارة منها وبدأنَ بتقليدها في حمّى التّموين واللّصق وتجميع الخبز اليابس، لكنّها، بسبب عقدة التّفوّق، باهت الجميع بامتلاكها ملجأ.. سيحميها ويحمي أولادها من الطّلعات الجويّة ودكّ المدفعيّة. ببساطةٍ كانت تقصد المنطقة الواقعة تحت درجِ البيت، فالصّدفة، أو غباء البنائين، أو الله سبحانه (كما رجّحت.. وهي لا ترجّح شيئاً إلا له) هو من جعل المكانَ غرفةً صغيرة.. ومتينةً!!

استعانتْ بجار يدرس الهندسة كي يجري حساباً دقيقاً (ثم رضيت بالحساب التقريبي لأنه تذرّع بعدم وجود الأدوات اللاّزمة) لكميّة الهواء في ملجئها. قام بالحسابات الرياضيّة، قسّم مكعب الحيّز على ما يمكن أن يستهلكه الشّخص الواحد خلال ساعةٍ من مكعبات الأوكسجين، ثم أعطاها زمناً محدّداً هو الحدّ الأقصى لضرورة تجديد التّهوية، أو الموت اختناقاً في الداخل.

الظريف أن الوقت القصير الذي نتج عن الحسابات بدا لها فرصةً ذهبيّةً للاعتذار، بل النّيل في حقيقة الأمر، من إحدى سلفاتها، برفض طلبها في اللجوء الإنساني، فقط لأن بدانتها ستجعلها تأخذ حصتنا من الأوكسجين.

مع الوقت اشتدّ التّوتر، فبات الناس ينتظرون انطلاق صفارات الإنذار الوشيكة وركبهم ترتجف، وحدها تلك المرأة الوسواسيّة القلقة بطبعها بدتْ مُطمئنةً واثقةً كإله. يقينها كاملٌ من أنّ كلّ شيء سينتهي بسلام العائلة، بفضل مشروع التّحصين المنزليّ!!

طلعتْ علينا بإعلانها بدء الرّيجيم، فراحتْ تمارس الرّياضة، وتتبع حمية في تخفيف الأكل.

اثنان منا يمسكان لها بطرفي حبل ويدوّرانه، كي تقفز وتقفز، متذرّعةً أنّها بحاجة إلى اللّياقة وقت الشدة، وحرصاً على توفير الطّعام، لئلا تفسح مجالاً لنقص قد يكون ضرسُها الطّيب سببه.

حتّى ذلك التاريخ كانت أمّي في السّادسة والعشرين من عمرها، وكنتُ أنا - بكرُها- في العاشرة، وكان البيت بادئاً بالازدهار والنّهوض قياساً إلى محيطه العائليّ والاجتماعيّ.

حتّى ذلك التّاريخ كلّ شيء كان على ما يرام، وكنّا عائلةً سعيدة حقّاً!!

حتّى ذلك التّاريخ كانت الحرب نوعاً من الحلّ، فعلى الأقلّ ستجعل أمّي أمّاً سعيدةً لو انهزمت الولايات المتحدّة الأمريكيّة في معركتها الأخيرة مع الاتحاد السوفياتي الذي كانت تكرهه، والذي سقط سقوطاً مدوياً بعد ذلك بقليل، فعاشت تتحسّر عليه، لأن كلّ ما حدث إنما حدث ليفاقم حزنها، وليجعلها تشيب وتتغضّن قبل الموعد الطبيعيّ.

حتّى ذلك التّاريخ لم تكن تبكي بلا سببٍ، ولا تصمت لساعاتٍ طوالٍ كالعجائز.

حتى ذلك التاريخ لم نكن يتامى.. بعده صرنا كذلك مع أنها موجودةٌ على رؤوسنا، لا لأنَّ جزءاً من الحلم انكسر، بل لأنّه لم يعد هناك مجالٌ للأحلام.

بعد وسواس الحرب أصيبتْ بوسواس السّرطان، الّذي تخلّصتْ

منه بوسواس الحبل، الّذي تخلّصت منه بإضافتها كائناً جديداً، في السّنة التّالية، لم يكن الأخير بطبيعة الحال!!

في زمن الحرب لم يحدثْ شيءٌ ممّا حَسِبَت له، حتّى وزنها لم ينخفضْ.. وفي زمن السّلام التّالي انخفض وزنها كثيراً بفضل الوسواس، لا الرّيجيم ولا الرّياضة ولا الحِمْيَة.

ثم في زمن اللا حرب واللا سلام التالي، رحتُ أحنُّ إلى خبزها اليابس.. إلى شخصيّتها القياديّة.. إلى وسائل التسلية العجيبة التي كانت تخترعها كي لا تُداخلَنا بذرة ذعرٍ.. بينما هي لا تحنّ إلى شيءٍ، ولا تريد شيئاً سوى أن تقع حربٌ حقيقيّةٌ، حربٌ لا تمنحها الفرصة للتّحصينات وتيبيس الخبز وتحضير الملجأ.. حربٌ لا تسمح لنا، كما في السّابق، أن نبيع الخبز اليابس ونصرف ثمنه على لعب «الفيشة» و«الدحل».

تحصينات أمّي الوحيدة للحرب القادمة هي أحزانها التي راكمتها الحروب التي لم تقع..!!

في زمن الحرب استعادت قوّتها وصارت تجلب الخبز، بروح قتاليّةٍ، من مخبزٍ طابوره لا ينتهي لو عمل إسبوعاً متواصلاً، كذلك كانت تحصل على المازوت إلى درجة الشكّ في اكتشفها لبئر نفط.

ثم راحت تتحدّث عن تزويجي. الناس تنزح هرباً من الموت وأمي تحدّثني عن الفتيات ذوات العيون الملّونة. أخبرها عن الأشلاء والقتلى فلا تبالي. ما يهمها زواجٌ يقضي على فشلي، فالعازب شخصٌ فاشلٌ بالضرورة في تفكير أمي. يجب عليّ رؤية أولادي. أربعة أطفالٍ ولدوا تباعاً، خلال الشهور الأربعة

الماضية، لإخوتي الأربعة لم يملؤوا عينها لأنها تريد المواليد بعدد أولادها، وأنا المقصّر الوحيد. «أسمهان جميلةٌ وصغيرةٌ، دعكَ من الفاسدات، الفطين من يأخذ البكر»، ثم تحاول التساهل معي فتقترح شمس «صحيح أن أهلها كلاب ولا يعجبونني، لكنّ لديها وركاً عريضاً، وهذا يعني أن لها رحماً كريماً بالأولاد، لذيذاً في صناعتهم»، وتغمز عند الجملة الأخيرة. «ليس وقته فالناس تموت يا أمي» أقول لأتهرّب، فترد «هذا وقته كي لا يموت الناس».

الناس يتحدثون عن جمعة العسكري بكثير من الضحك. البعض يراه مغلوباً على أمره في عالم الجيش الذي يقوم على التقرير والأوامر، والبعض الآخر يرونه حقيراً، ومثالاً نموذجياً لأدوات القمع السلطوية. لكنّ الجميع متفقون على أن جمعة كوميديا ضرورية لهذا الوقت الكالح، وفي أكثر الأمكنة بعداً عن الكوميديا، في حاجز التفتيش.

جمعة يحبّ الرئيس. وقد علّق على بدلته العسكرية بطاقة كتب فيها: «جمعة لن يتسرّح من الخدمة ما دام القائد في خطر». مررتُ مراراً على الحاجز ولم أره . قالوا إني أمر في أوقات انتهاء مناوبته. ويؤكد الجار أنه كان اليوم في قمة مزاجه. فتح باب السرفيس وحين شاهد فتاةً حلوةً ألغى طلب الهويات «كرمى لعيونها»، وسمح لهم بالمرور سريعاً، في حين أن الحاجز التالي لم يبال بتلك العيون ففتشهم وأخّرهم.

أحد سائقي الخط يؤكّد أن زملاءه السائقين يتقاسمون مهمة جلب عبوات «XXL» و«فوكس» و«فلاش». فكلما كان سكرانَ صار الخطّ سالكاً. سائق آخر يضيف بأن جمعة أُعجب بكاسيت العرس الذي يلعلع في مسجّل السرفيس، أنزل الركاب وعقد حلقة دبكة، وأمسك على الأول.

ويأتيك من يقول إنه عسكري مغلوب على أمره، والدليل إيقافه سيارة مدنية فخمة أراد سائقها التملص من الخط المدني والسير على الخط العسكري المخصص للجيش والإسعاف، أوقفها وحين عرض السائق أوراق المهمة الأمنية التي يحملها من القصر الجمهوري، سأله بحنق: «هل ترى الرئيس..؟». «طبعاً، كل أسبوع اجتمع به»، أجابه. فقال بغضب: «أخبره أن جمعة لم يستحم منذ شهرين».

أخبار جمعة لا تأتي إلا في أوقات الهدوء والسكينة، لتعود وتغيب مع المعارك والاشتباكات، فلا نعرف شيئاً عن روحه القتاليّة. ترى هل تواطأ الجميع على منح الحاجز، رمز الحرب، بعضاً من دلالات السلام عبر هذا الجندي..؟ أم هو فعلاً كذلك..؟

الأوصاف التي جمعتها عنه تفيد أنه: عشريني، أسمر بعيون خضراء، مربوع القامة، لديه وزن زائد، رائحة الخمر تسبقه من عدة أمتار، راحة يده كالمطرقة، يرتدي حذاءً رياضياً على البدلة العسكرية، على رأسه يضع شماخاً أحمر.

أحد أصدقائي عرف باهتمامي بجمعة، فتبرّع لإجراء مقابلة معه تفيد النص الذي أنوي كتابته. صديقي الذي يعرف الضابط المسؤول عن الحاجز نقل لي كلامه بالحرف: «لم يكن خلال الشهور الست الماضية التي داومت فيها هنا أي عسكري بهذا الاسم، أو بتلك الأوصاف، مع أني أسمع عنه كثيراً، ولا أفهم لماذا أُسأَلُ عنه دائماً، وعلى الأخصّ من سكان المخيم».

من عادوا من «حصار بيروت» و«غزو العراق» استحالوا خبراء عسكريين يبذرون طاقاتهم في شرح المخططات، ورصد حركة الجيش وانشقاقاته، والمعنى النفسي والسياسي للمعارك.

يحاولون رفع المعنويات العامة بخبراتهم القديمة ظنّاً منهم أن الحروب لا تتغيّر، فالقتل هو القتل، لكنّهم ينسون كم القتل مجالٌ لإبداعات الشر، فتسقط أوهامهم مع أول برميل متفجّر.

الأمر الذي نصدّقه هو ما لم نكن نصدّقه عند تحوّل قصصهم الفظيعة إلى وقائع يومية، كحكاية الهودجيّ عن انفجار لغمٍ بصديقه واندلاق أمعائه على الأرض. الهودجيّ الذي يصف المشهد لم ينس يوماً تقنية السرد عبر الثانوي، وهو ما عبّر عنه برفض صديقه الموت دون تدخين سيجارة.

قصة الهودجيّ الحقيقية حدثت خارج الحرب، فالرجل عاش على حافة الموت دوماً، فسوى الذبحات القلبية المتتالية، وسوى دهسه بسيارة حطمت عظامه؛ جاء نـاعٍ ليقول إنه أصيب بثلاث طلقات خطأً في مشاجرة، قلتُ للناعي ضاحكاً: «هذا رجل لا يموت». وفعلاً عرفنا بعدها أنه وقف نازفاً وركب سيارة إلى المستشفى.

من يعرف أجزاءً من سنينه الخمسين قادر على التنبؤ بذلك، فكيف يموت من يدفع ثمن زجاجة الخمر، وقبل أن يرد له البائع بقية نقوده يكون قد شربها..؟

تعلّمك حياة الهودجيّ قدرة الإنسان على ولادة نفسه، حيث يحبّل الرحم الذي يريد، بالنطاف التي يريد، كي يولد كما يريد، ويموت، أيضاً، كما يريد..!

الهوى وحده قادرٌ على جعل الإنسان هكذا. وقصة حبّ امتدت لثلاثين سنة تستطيع أخذ صاحبها إلى الأسطورية التي تليق به، وترشحه لصناعة أساطير أخرى، أساطير أرضية قابلة للعيش والتصديق.

ضمن هذا المعنى يمكن القول عن شاعرٍ إنه عاش في زمن المعلقات. ليس بمعنى القدم والعتق، إنما بالمجال الحيوي الطليق الذي تتيحه القصيدة لجعل الخيال واقعاً.

رسّام فذ، والأمثلة كثيرة جداً، يشعرك أنه بدأ مع أول الخربشات على أول الجدران في أول الكهوف. ربما رسم، ربما شاهد، لكنّ الأكيد هو الضوء الذي يستطيع إشعاعه علينا وفينا، إلى حدّ جعل الزمن شخصاً مرئياً واقفاً قدّامنا.

على هذا وذاك لم يستطع أحد إقناعي أن الهودجي، الشهم والقوي والطيب بلا حدود، لم يكن صديقاً لعنترة بن شداد في السيرة الشعبية المتخيلة، لا في التاريخ الصرف فقط. أو أنه لم يكن عضواً في عصابة «روبن هود». شخصٌ كالهودجي موجودٌ ليقول لنا كم إن الإنسان إنسانٌ حتى وإن اختلفت الثقافة واللغة والسياق والزمن..!

اختفى عزمي أحد العائدين من العراق بعد أن كان لعنة على الأمريكان. ثمة من يقول إنه معتقل في إحدى أقبية الأمن، وثمة من يقول إنه يقاتل في تنظيم سلفيّ. وثمة من يقول إنّ اللصوص قتلوه.

اختفى عزمي الذي يؤمن بالسيف والحصان. اختفى وكأنه لم يكن يوماً هنا..!

مرة سحب سيفه كأبي زيد الهلاليّ على دورية شرطة أرادت مصادرة خضروات بسطته، وقتها كان رأسه يغلي من اختراق طائرة لسماء مدينة بوكمال الحدودية.

عزمي قال لهم: «تمرجلوا في «أم كمال» وليس هنا..!».

صرخته نقلت اسم المدينة من «أبو» إلى«أم» لشعوره الصاعق بالعار.

في بيته شحاطة موضوعة في فاترينة، زواره يظنونها لدرء الحسد، لكنّ قصتها قصة، فهي ذكرى من شهيد. حدث ذلك في الاقتتال الفلسطيني – الفلسطيني في ثمانينيات القرن الماضي، حين حاصرت قوات تنظيمه موقعاً عسكرياً، مدة أسبوع، لكنّه

ظل يعيق تقدّمهم بكل الأسلحة المتاحة فيه. وعند اقتحامه تبيّن أن كل من في الموقع هم ثلاثة فتية لا أكثر، ولم يكن الموقع ليسقط لولا سقوطهم شهداء. خلال الإسبوع كله كانوا يديرون أسلحتهم بالتناوب على الهاون والراجمة والرشاشات، ولا ينام منهم إلا واحد فقط، ولمدة قليلة.

عزمي حين سمع القصة ذهب ليلاً إلى الموقع ودفن الشباب، وأخذ الشحاطة من رجلي أحدهم، فالاثنان ماتا حافيين.

نحن الذين لانعرف أيّ أثر من الطريق الذي سلكه عزمي، هل لنا فردة من حذائه؟

مشياً غادرت أختاي الصغيرتان المخيّم. أقدامهنّ الصغيرة، في الخروج من المكان المهدّد بالاجتياح، أحيت سيرة أقدام الجدّات اللواتي جئن مشياً قبل أكثر من نصف قرنٍ.

هي حكاية مشي وأقدام. المشي هو ذاته، الطريق ذاته، الموت فقط من تغيّر..!

«هل كُتب علينا المشي؟»، تساءلت القديسة، ثم استذكرتْ عمرها الذي كان مشياً فقط، لا تختلف الجهات فيه إلا لاختلاف المواسم. قضت حياتها تمشي، بصبحة النساء، إلى جهة الزيتون أو البابونج أو العكوب أو سواها.

الميجر تحدّث عن ممدوح مرّة أخرى. قال «لا يمشي لهدفٍ غير المنسف. المنسف سمتُهُ. كلما سمع عن وليمةٍ مشى إليها مع رفاقه المتطفلين. مرّة بال في الطريق، وحين وصلوا المنزل المقصود قام وأَمّ بالحاضرين في صلاة العصر، كي يبرّر اقتحامه للمنزل. أحد أصحابه همس مُذَكِّراً إياه إن وضوءه فسد بعدما بال، فردّ بفتوى مرتجلة: صلاة المنسف لا وضوء عليها».

عاد الجميع للحديث عن مسّوس، قالوا إنه لا يزال يمشي في الشارع العام، في المكان المخصّص للسيارات. بعدما أغلقوا

الشارع من الجهتين، وتوقّفت حركة السيارات نهائيّاً، صار هو سيارة.

قالت حياة: «مسوس يريد واحداً من اثنين إما أن يكون شرطي مرور أو سيارة، والآن صار بإمكانه تحقيق حلمين في الوقت نفسه».

ذكّروني برأفت حسن خليل، صديق المدرسة، الذي مات قبل حوالي عشرين عاماً. كان قد وصل إلى سنته الحادية عشرة ولم يعرف به أحد. أكمل حياته في الحارات كما يُحب، فحتّى في الثالثة فجراً يُطلق زمور فمِهِ معلناً أنه شاحنةٌ. بيديّ هاتين أوصلته إلى الثانية والثلاثين بعدما أنهكني في رسم ملامح رجولته المُفترضة. لم يتعبني رسمُ شاربيه وذقنه بالمقدار الذي أرهقني فيه تصوير قساوة جلده، تلك التي لا يتقنها أحدُ كما السنوات حينما تمرّ لتجعل جلود الرجال مدبوغةً.

ها هو في العقد الرابع بعدما نساه رفاق الدراسة، وبعدما نسته الأزقة التي جعلها أوتوتسترادات للشاحنة التي هو. ها هو كما اشتهى؛ شاحنةً.

رأفت حيٌّ مرّة ثانية، ولا أحد يعرف، ولن يعرف، فلن أتركه يمشي خطوةً واحدةً. لأنني لم أرسمه، فقط رأيتُ وجهه في لهب القنديل.

يتمدّد موسى في الشارع قرب أنقاض البيوت التي خلّفها القصف الجويّ. جثتُهُ مغطاةٌ بالرّمل والدماء. أصوات قذائف في البعيد، تتلوها رشقات رصاص متفرقة دون أن تتوّقف.

تخفتُ أصوات الانفجارات رويداً رويداً، بالتوازي مع بدء الحركة في جسد موسى الملقى ميتاً. تتطوّر الحركة فيرفع رأسه، ثمّ ينهض متثاقلاً.

ها هو ذا يقف أخيراً. ثمّة بقعة دم تتجمّع أسفل قدميه، ينظر إليها بلا مبالاةٍ. لحيته مغبرّة، شعره منفوش وقد غطّاه بياض الرمل، يده المشلولة لا تزال مرفوعة إلى صدره كما كانت من قبل.

يلمس ذراعه فتوجعه: آآآآآه..!!

ينتبه إلى لفظه فيعاود الكرة: آآآآآآه..!!

يعجبه صوته فيبدأ بالتنويع اللحني على الآه: آآآآآآآآه... أووووووه... إيييييييه...!!

يصفّق بحماسة معجباً بنفسه: أخيراً أستطيع التكلم..!

ينتبه إلى تحرّك يده المشلولة. يرفعها قليلاً، ثم ينزلها، ثم يبدأ برفعها وإنزالها بسرعة كبيرة.. يُبقي يده مرفوعة إلى الأعلى

ويصرخ: شُفيت يدك يا مسّوس.. الحمد لله على السلامة. يجيب نفسه: الله يسلّمني.

يُخرج لسانه ويلمسه بإصبعه: لسان..

يبدأ بتعداد أعضائه مثل طفل يتعلّم الكلام: لسان.. عين.. أنف.. أذن.. أصابع.. قدمان..

مع وصوله إلى القدمين يبدأ بالنطّ بفرح كبير..

حين ينتبه إلى دمار المكان من حوله يصعق: يا حراااام..!! ما هذا..؟

يتجوّل في المكان وقد انقلب فرحه إلى غمّ: يا الله...!! ما كلّ هذا الخراب..؟

يقف أمام الركام: هذا بيت أبي ياسين.. يا مسكين يا أبا ياسين الحقير..!!

يدخل في الأنقاض ويلتقط يداً رجاليةً مقطوعةً يرفعها إليه ويخاطبها: أنتِ اليد التي ياما ضربتني.. تباً لك.. ألم يكن أولى بك أن تضربي أصدقاء أبي ياسين، صاحبكِ، الذين كانوا يأتون إليه من أجل أم ياسين..؟ طبعاً ستقولين لي إنكِ لم تكوني تعرفين بذلك، لذا سأخبركِ بالحقيقة.. يا عزيزتي الأيدي التي تصافحكِ وتلاعبك الورق كان أصحابها يأتون لأجل المدام التي تنتظرهم في الحمام. وبينما تكونين منتشيةً من الانتصار في تسجيل أعلى النقاط على الخصوم، تكون أيدي الأصدقاء الأوفياء تحصد نشوة أخرى من «بنت الدينار».

يضحك بهيستريا.

في النهاية الجميع يعرفون القصة، حتى البطل أبو ياسين. الذي لا يصبح بطلاً إلا حين يراني، فيصرخ على الفور: «ماذا تفعل يا حيوان..؟»، وأنتِ تتولين الصفع والخبط.. كم أنا شامتٌ بكِ الآن..!! هيا انقلعي.. وابحثي عن قفا صاحبك بين الأشلاء.. وحين تجديها اصفعيها أو ابعصيها نيابة عنّي.

يرمي اليد ويذهب باتجاه ثلاجة مرمية على الأرض وقد التوى حديدها. يفتحها بصعوبة ويُخرج منها قرط موز ثم يتأمله بشغف. يقشّر موزةً.. حين يقرّبها من فمه لا يستطيع أكلها.. يحاول مرّة أخرى ويفشل فيرميها. يتجوّل في المكان مفكّراً بصوتٍ عالٍ: لماذا لا أقوى على أكل الموز؟؟

يلتقط قرط الموز من جديد: ما فائدة الموز الآن..؟ عندما كنتُ أريده لم يكن موجوداً.

يجلس صامتاً فوق الأنقاض..

يقف فجأة.. يتجوّل في المكان برعبٍ أمام الدمار الذي أتى على كل شيء: ماذا حل ببيتنا؟ أين أهلي؟ أين زوجتي؟ هل أنا الحي الوحيد..؟ يا هووووووو... يا سامعي الصوت..

يتلفت حوله: أين ذهب الجميع...من أين كان الطريق؟

يبدو جاهلاً كلياً بالمكان فيحلّل: إذا كان هذا بيت أبي ياسين فالبيت الملاصق هو بيت الدرويشة أم مريم، وهذا يعني أن الطريق من هنا..

يسير بضعة خطوات ثم يسدّ طريقه جدار وهمي يمنعه عن إتمام مشيه. فيعود بالاتجاه المعاكس، وبعد بضعة خطوات يمنعه جدار وهمي آخر.

يتراجع إلى الخلف ويركض بأقصى طاقته ليصطدم بحاجز يرميه عدة خطوات إلى الخلف منبطحاً على الأرض.. يزمجر بقوة: آآآآآآآ..!!

يتعفر بالرمل الذي يملأ الأرض. ويأخذ بحفنات منه ويرميها في الهواء مما يجعله وسط جو ضبابي. يقف من جديد ويترنّح داخل الضباب. يمشي ويمشي.. ثم يجلس ويتحدث بألم: أنا موسى أبو الشيخ كما أعرف نفسي. ومسّوسْ كما يعرفني الجميع. ولدتُ هنا، بالتأكيد هنا، في هذه الحارة. لإحدى أكثر عائلات العالم فقراً. كان يمكن أن أكون غنياً لولا أن أبي بدّد ثروته على ملذاته التي لم تعرف ارتواءً. أنا من هذه الحارة التي تنسد جهاتها في وجهي الآن.

يقف ويخاطب المكان: يا حارتي يا حارة.. تكلّمي.

يصمت للحظات منتظراً إجابة، وحين لا يأتيه إلا الصمت يعاود حديثه وكأنّه يريد تزجية الوقت: أبي قاسم أشهر سائق في تاريخ المنطقة. باصه «الحاوية». الناس سموه بهذا الاسم لشبهه الكبير بحاوية القمامة. باص رهيب.. حتّى أنّه مرةً سجّل أهم حادث مروري في تاريخ المواصلات.. وقد كتبت عنه إحدى الصحف «الباص الذي تحوّل إلى طائرة ومن ثم إلى سفينة». من قرأ الخبر يعرف أن «الحاوية» طارت بالركاب إلى نهر «بردى».. لكنّ أحداً لم يصب بسوء. الأهم من الباصّ هو السائق السكران طوال الوقت. الناس الذين نجوا من الحادثة أقسموا أيماناً مُغلّظة أن وقود باص الحاوية كان من العَرَق، لا من المازوت.. فأبي كان يبدأ يومه بالعرق. يمارس عمله مع العرق. وحتى حين جاءه الموت أبى توديع الحياة دون رشفة عرق أخيرة. عندما هوى كأسه روحه غادرت.

أنا ابنه الثاني من زوجته الثالثة. الزوجة التي قبلتِ الزواج منه والنزول على ضرّتين لأنّه قاسم الشهير. قاسم الذي تحلم به النّساء.. قبلت به لهذا السبب لا لماله، فقد كانت تعرف أنه كان يحتضر مالياً.

إخوتي لأبي انشقوا عنه باكراً. كانوا يعرفون جيداً أن شخصاً مثله لن يورثهم إلاّ قناني العرق الفارغة. لذا عاشوا مع أمهاتهم بعيداً عنا. بينما كان علينا نحن أبناء الزوجة الثالثة، وعلى أمنا، أن نؤرخ لأيامنا بانهيارات قاسم. ولد أخي الكبير في السنة التي بِيْع فيها الباص وفُتحت بما تبقى من الأموال دكان صغيرة. فيما ولدتُ أنا سنة بيع الدكان. أما أخي الأصغر مني فقد ولد سنة «البسطة»، حين أصبح أبي بائع دخان على بسطة في الشارع الرئيسي. أما أصغرنا جميعا فقد ولد سنة موت أبي.

خلال هذه السنوات الأربع كان على أمي أن تعمل خادمة في بيوت أكابر المدينة. ولم تجد وقتاً للتقاعد إلا حين أقعدها سرطان الدم في البيت. ليس في البيت تماماً. بل أمامه. على العتبة. ذلك أنّ طبيب الأعشاب الذي تؤمن بعلومه أخبرها أنه ما من شيء يقدر على السرطان مثل ضوء الشمس.. إلا أن هذا كان وبالاً عليها فقد ماتت بسرطان الجلد.

في يوم موتها عدتُ مع أخي الكبير من الشغل ووجدناها جالسة بعينين مغمضتين على العتبة كالعادة. دخلنا واغتسلنا وأكلنا. ولم نكتشف أنها كانت قد فارقت الحياة إلا مع حلول الظلام. ومع انسحاب آخر شعاع من الشمس سقطتْ جانباً على المصطبة..

يطلق زفرة طويلة.. ويعود للحديث:

بعدها تزوج أخي الكبير وسكن غرفة في البيت. وحين شاهدتُ أختَ زوجة أخي أعجبتني كثيراً. ولعل أكثر ما أعجبني فيها هو الشامة التي بحجم حبة التوت الشامي على ذقنها. وحين تجرأتُ وقلتُ لها ذلك أحبتني فوراً. وفيما بعد عرفت أنها المرة الأولى في حياتها التي تلتقي فيها بشخص لا يسخر من شامتها. تزوجنا سريعاً.. سكنّا غرفةً بنيتُها فوق سطح البيت بجوار أبراج الحمام. ومثل كل أولاد هذه الحارات كنتُ على موعد مع أبوتي بعد تسعة شهور..

يتفقد مسّوس المكان من جديد، ثم يجلس ويتابع: جاءت ابنتي «آلاء» في أسوأ أيامي. كنت مطروداً من العمل وقتها. ولسوء الحظ أنّ قلة الطعام جعلت حليب أمها يجف سريعاً. في يوم أسود قدّم لي أخي كأسَ حليب، حليب بقر، فركضتُ به لأنقذ الرضيعة وأريح زوجتي. دون أن أدري أنني بهذا الكأس سأقتل ابنتي. ودون أن أدري أنني سأركض بها ميتة حتى اليوم بينما الجميع ينادون: مسّوس المجنون.. الآن أعي كل ذلك. مرّت سنوات لم أدرك فيها شيئاً. بل لم أتفوّه فيها بكلمة. فكل ما لدي هو عاري كأبٍ قاتل، وزوجٍ مهجور. وعاري كمجنون يسخر منه الجميع، ثم يكفّرون عن أنفسهم تجاهه برغيف خبز أو حبة فاكهة أو سيجارة..

يقف مصعوقاً: سيجارة!! أريد سيجارة..!!

يُخرج من الأنقاض نصف سيجارة. يتلمّس جسمه ويخرج علبة كبريت بانتصار. يحاول إشعال السيجارة ويفشل. يعاود الكرّة مرات متعددة دون فائدة. تشتعل السيجارة، ولكنه لا يستطيع تدخينها: اللعنة..! ما الفائدة؟؟

يرمي علبة الكبريت بقرف. يجلس فوق الأنقاض ويدخن سيجارة وهمية يشعلها بقداحة وهمية وينفخ دخاناً وهمياً، ويتحدّث إلى الأنقاض من حوله بروح ملأى بالشماتة: أشعر أنكم تستحقون هذا يا أولاد الحرام.. بل أشعر أنه قد تأخر كثيراً. كان يجب أن تذوقوا الوبال لتعرفوا جيداً أنكم لستم جديرين بالحياة... تركتموني أقتل ابنتي. أنا الأحمق الذي سقاها حليب بقر فاسد. لكن ألم تكن بين نسائكم من تتطوع لإرضاع طفلتي؟ كان بينكم... أعرف هذا... أم مريم طلبت منك يا بثينة.. وأنتِ رفضتِ..

يمشي باتجاه المكان المفترض لبيت بثينة: رفضتِ وتحجّجتِ بأن لبن صدرك شحيح.. شحيح؟ كيف يكون شحيحاً ولك صدر بقرة؟ وكيف يكون شحيحاً وابنكِ الذي بحجم الدب له خدّان متوردتان.

تعود الطائرة للضرب من جديد.. يتوارى مسوس خلف بعض الحجارة ويسمع صوت انفجارات متتالية، وحين يغيب هدير صوتها الذي شق الفضاء يخرج من مخبئه ويتجوّل حائراً: يا إلهي.. كم مات الآن؟

يشعر بندم شديد يعصف بقلبه، فيخاطب الركام: حزين عليكم لأني حزين عليّ، حزين عليّ لأني حزين على الدنيا.. الدنيا كلها. يا الله.. خذني.لا تتركني وحيداً هكذا. لماذا ليس معي أحد..

يعلو صوت انفجار فيفزع. يهدئ من روعه ويعود إلى التمشي، جيئةً وذهاباً، من جديد. يخاطب الأنقاض حوله: أراكم تمشون، كلكم تمشون. تمشون جماعاتٍ كما كنتم تمشون إلى المخبز والسوق والجامع. وأنا أمشي. لا أنا قضيتُ حياتي ماشياً. أمشي وأضع

علبة جبنة «البقرة الضاحكة» في جيبي، أمشي وآكل جبنة. ألتهم القرص وأمشي. أحب سيلان الجبنة تحت اللسان، أحب لساني حين يصبح أبيض ولزجاً كالصمغ. في طفولتي كنت أجمع الخبز اليابس، الألمنيوم، النحاس، نعال الأحذية، قناني الخمر الفارغة.. أبيعها لأشتري «البقرة الضاحكة». كنت أظن ان من يأكل هذه الجبنة سيضحك مثل تلك البقرة في الصورة. الأبقار تضحك، الحمير تضحك، الكلاب تضحك، إلا البشر عابسون. عابسون لأنهم لا يأكلون جبنة البقرة مثلي.. أما أنا فقطيع من البقر الضاحك..

يضحك بعنف.

أمشي وأضحك. لا أمشي في الحقيقة، بل أضحك فيمشي بي الطريق. يمشي الطريق بالضاحكين، العابسون فقط يبقون مكانهم.

تُسمع أصوات أشخاص وخطوات أقدام تتلاحق بين الأنقاض.. يتلوها صوت تلقيم سلاح.. ثم تبدأ لعلعة الرصاص الضارية. يخرج موسى من مكمنه بين الركام ويهجم حائراً، لكنه يصبح في منطقة تقاطع النيران، حيث ينهمر الرصاص بغزارة من الجهتين، فيبدأ بالصراخ، لكنْ لا أحد يبالي به: كفى.. توقفوا..

ينتقل بين الجهتين وهو يواصل الصراخ: الرصاصة التي تردي إنساناً يمكن أن تكون ثمناً لطعامه.. توقفوا.. توقفوا.. الموت الذي تصنعونه لا يمكن أن يصير حياةً.. توقفوا..

يجلس يائساً حين لا يستجيب له.

ينهض موسى ويبدأ بالزمجرة الشبيحيّة حيث يجتمع في صوته

مزيج من العواء والنباح والزئير، ثم يبدأ بالتحرك كقطيع من الوحوش الكاسرة. تتنوّع في صوته صفير الريح والرعد. يرقص ويضرب الهواء وينط.. ينفخ صدره ويتعملق وهو يمشي باتجاه مكمن الفريق الأول، ويطلق كتلة من الأصوات الشبيحيّة المخيفة، فيتوقف إطلاق النار من ذلك الاتجاه. ثم ينتقل، بالوتيرة ذاتها، نحو متراس الفريق الثاني الذي ازداد إطلاق رصاصه لظنّ مقاتليه أنهم يحققون انتصاراً، فيرقص ويضرب الهواء وينط، يتعملق ويتضاءل، يرغي ويزبد، فينطفئ الإطلاق المحموم..

تُسمع صرخاتُ هلع من رجالٍ يهربون، وضجيج بنادق تلقى على الأرض، ثم يعمّ السكون..

بعد لحظات من السكون: أوقفت الحرب..

ينتبه إلى الجملة الأخيرة ويصمت كانما يتأملها، وفي هذه الأثناء يعلو هدير طائرة حربية تحلّق فوقه، فيأخذ بمراقبتها ويسمع صوت توالي قصفها على أمكنة قريبة. يفتح ذراعيه كما لو أنه يحاول الطيران.. يرفرف بيديه.. يقفز في الهواء صارخاً كطفل في فيلم كرتون.. ثم نسمع انفجار الطائرة.

يعود موسى من مكان ما ويقترب من ركام بيت أم مريم: انتهت الحرب يا أم مريم.. انتهت ومسّوس من أنهاها!! مسّوس الذي لا يعجب أحداً فعلها يا أم مريم!!

يمشي باتجاه منزل الدكتور ويعانق خيالاً ويخاطبه: شكراً.. شكراً يا دكتور.. في الحرب القادمة إن وقعت سآخذك معي إن شاء الله وسأمنحك شرف أن تكون مشاركاً في إنهاءها..

يمشي مسرعاً وهو يلوّح بيديه لجمهور المعجبين الذي يلاحقه.

ينتبه إلى بيت أبي ياسين: ليتكِ هنا لتعانقيني يا أم ياسين.. آآآآه!! ليتكِ هنا فعلاً. بالتأكيد ستندمين على أنكِ لم تكوني معي من قبل. سنترك الجميع يلعبون الورق في الصالون وتأخذيني إلى المرحاض. أووووه!! وقتها سأريكِ من هو مسّوس..!! وستعرفين ما معنى أن يكون الرجل رجلاً، معنى الرجل الذي أوقف حرباً. وقتها سأسمح لك أنتِ، لقُبلكِ، لرائحتكِ، لجسدكِ أن يحاربني.. وسأقبل بالهزيمة أمامه، فتلك هي الحرب العادلة.

يشعر موسى بالتعب والنعاس، فيعود إلى مكانه الأول ويتمدد على الأرض: الآن أستطيع أن أغفو بسلام وهدوء.. تصبحين على خير يا حارتي..

على الفور يغرق في سباته.

تأتي أصوات بشر يتصارخون.. تتعالى رويداً رويداً. تمتزج الأصوات ببعضها البعض.

تصل أم ياسين، فتنادي: هناك رجل يا دكتور..

يهرع الدكتور إلى المكان المشار إليه ويبدأ المعاينة فوراً: هذا مسوس.. يا الله.. لقد فارق الحياة منذ ساعتين.. أو أكثر..

ويعلو عويل نسائي.

عدتُ إلى عادتي القديمة في الوقوف على ناصية الحارة وتدخين سيجارة. تغيّرت الصورة كثيراً، فحيث أقف الآن أرى السيارت من كل الأنواع التي كان من النادر أن نراها في الماضي. كما تمر صبايا جميلاتٍ وكثيراتٍ بشكل يبعث على الحسرة.

تمرّ دلال بعباءتها السوداء وقدها الميّاس، فتوقظ جراحاً قديمةً ودماً جديداً. في مراهقتي كنتُ أنافس ستين ابن كلب عليها، ثم خسرناها جميعاً، حين تزوجت ونسينا أمرها. لكنها حين تمرّ الآن، بالعباءة السوداء، تعيد ترميم المشهد: منزلنا بلا سور بحيث يتداخل مع الشارع الترابي الذي يصر على ملئنا بالغبار. الأولاد يلعبون كرة القدم وأنا بانتظارها.

لكنّ جاري الغبي يوقظني من غيبوبة يقظتي ويشير إلى دلال. وبينما أهمّ بقول «آه» يسبقني بقوله «ما أجمل ربطة الخبز التي تحملها».

أحبّيني يا دلال.

أرجوكِ، أحبيني.. أحبيني..

لدى دلال ما لدينا من تعبٍ وهم، موزّعة بين عملها كممرضةٍ

وبين أمومتها المجانيّة لخمسة لم يستطيعوا منعها من البقاء كما كانت؛ فكرةً كلّ رجلٍ عن النساء، لا سيما بتلك الطيز التي تجعلك تفكّر بسلقها مع الخضروات والتوابل، ثم تعود وتتأكّد بل يجب قلْيُهَا مع زيت الزيتون، لتفكّر بعدها بالتهامها مشويةً، ولكنْ بمجرّد وصولك إلى أنها تؤكل نيئةً تتبخّر الصورة، فوحدها أسنان زوجها التافه من تتمتّع بلك الحلاوة.

دلال ليستِ سمراء إلاّ لأنَّ بشرتَها ظلّتْ تمتقع من شدّةِ ما خزّنتِ تحتها من شهواتنا. وليست طويلةً إلا لشّدة ما سرقت لقامتها من انتصاباتنا..!!

تركتْ عشاقها يكبرون في هواها المستحيل. لكنهم رغم ذلك ظلّوا مشغولين بأخبارها في وقت بات فيه الإعلام مشغولٌ بنقل الأخبار ساعةَ وقوعها. كلنا، نحنُ الّذين لا شغل لنا، مشغولون بمعرفة أخبارها قبل وقوعها، عسى ولعلّ «تقع» أخيراً.

تمرّ دلال ولا تلقي التحية فيسأل القلب: ما المرأة..؟

من حولها دبابات وناقلات جنود، لكنها تسرق انتباه الجميع.

أدخن سيجارة وأقول لو أن الجسد يعمل كما الدبابة بماذا ستقصفنا؟ الميجر سيتمنى أن ترشّه برموشها، ذلك أنّ هذا المتفاصح لا يتوقف عن ترديد بيت جرير: «إن العيون التي في طرفها حور..»، أبو مرخي سيتمنّى لو تقصفه الحلمتان، مثله لن يفكر إلا بهذا، فلطالما شاهدناه يمارس العادة السرية على الملأ. يمارسها أكثر مما يبول، وسيكون من حسن حظه أن تتزامن الأمنية الغارة مع استمنائه الأخير.

مني وعلي، الآن، أشتهي أن أبكي في حضنها لأيّ سببٍ تافهٍ غير

الحرب.

تمرّ دلال ولا تلقي التحية فيسأل القلب: ما المرأة..؟

أرسلت لي اليوم، بين آخرين، رسالة موبايل تخبر عن «حملة تلقيح مجانيّة للأطفال دون الخامسة». فأرسلت لها على الفور: «وأنتِ، يا جارتاه، ما السبيل إلى تلقيحكِ..؟».

تمرّ دلال ولا تلقي التحية.

«الجيش سيقتحم المنطقة»، منذ ثلاثة أشهر نعيش تحت وطأة هذه الإشاعة التي تجد كل يوم حدثاً يقوّيها أكثر فأكثر. تغيّرت معادلات الأمان في مخيم «خان الشيح»، ثاني أكبر مخيّم فلسطيني في سوريا. وبسبب توافد كتائب المعارضة المسلحة إلى المنطقة مؤخراً تقلّص دوام الخوف إلى النّصف، حيث صار الخطر نهاريّاً فقط، لكون هذه الكتائب تنشط ليلاً.

حدث هذا بعد سنة ونصف كان المخيم فيها قطباً لإيواء المهجّرين من المناطق المشتعلة، أما الآن فقد صار الشباب يسوحون في البراري المحيطة بنا نهاراً، خشية أن يتم الاقتحام الفجائي وتنسد كل منافذ الهرب، ومع الليل يعودون ليبيتوا في فراشهم.

منذ ثلاثة شهور لم أغادر المخيم، فإضافة إلى مخاوف الاعتقال العامة التي يحملها الجميع، لدي مخاوفي الخاصة من سوقي إلى الخدمة الإلزامية، صحيح أنني مطلوب إليها منذ عشر سنوات، لكني استطعتُ، خلال هذه المدة، الهروب والتملّص بالطرق التي يتيحها الفساد العادي والعام، وشبه المشرعن. كل ستة أشهر تأتي دورية شرطة إلى المنزل لتبلغني بضرورة الالتحاق، فأعطيهم مبلغاً تافهاً مقابل أن يسجلوا بأنهم لم يجدوني ليبلغوني.

عدم الذهب إلى الجيش قرار مبدئيّ استطعتُ الثبات عليه

لاحتقاري الكبير للجيوش المصنوعة لحماية العروش، وما حدث في حرب النظام على الشعب أكّد صواب نظرتي. وخلال كركبة أحوالي نتيجة التشدد الأمني الذي تفاقم مع الوقت، رحتُ أحوّل خوفي انتصاراً بالسخرية أمام الأصدقاء: «أنا منشق قبل الثورة».

في شهور الثورة الأولى اكتشفنا أن الفساد نعمةٌ إلهية، فما الذي كان سيحدث لو كان لدى هذه النظام على كل حاجز شبكة إنترنت؟ وكم سيكون عدد المعتقلين لولا قابلية الضباط وصف الضباط والجنود للرشاوى؟

كذلك اكتشفنا سعادة حظنا بفضائل العالم الثالث، لا سيما التخلّف، ذلك أنّ الحواجز العسكرية تعمل بطريقة بدائية، من خلال ورقة مكتوبة بخط اليد بأسماء المطلوبين، في المنطقة التي يقع فيها الحاجز حصراً، وهذا يعني أنك إنْ نجوت من حاجز منطقتك فلن تكون مطلوباً في مكان آخر.

كفلسطيني – سوري عليّ الالتحاق بقوات «جيش التحرير الفلسطيني» الذي استطاع النظام السوري إلحاقه بجيشه واعتباره قطعة منه، والمضحك أن مهمة هذا الجيش، في الإستراتيجية العسكرية الرسمية، هي تأخير تقدم العدو لخمس دقائق. هذا يعني أن على جيش اللاجئين الفلسطينيين أن يموت فقط لا غير، ريثما يصل الجيش الباسل لينظف الجبهة من «رجس الأعداء».

«جيش التحرير» أنموذج لفساد المؤسسة العسكرية العربية، وتحولها إلى أداة لنهب المال العام، إضافة إلى مهمته المدروسة في مسح المعالم الإنسانية من كل جيل صاعد. في أدبياته كل قيم تحرير الأرض والإنسان، وفي ممارساته كل ما يكفّرك بالأرض

والإنسان، فعلى سبيل المثال؛ قائد هذا الجيش شاعر، وما يميزه أنه أكثر شعراء اللغة العربية مبيعاً، فقط لأنه كلما أصدر ديواناً فرض على كل فرد في الجيش شراء نسخة منه، علماً أن ثمن الكتاب يصل إلى نصف راتب المجند. ناهيك عن الممارسات السوريالية بحق الشباب أثناء الخدمة، حيث يعاقب الضابط أحد الجنود بأن يطفأ «لمبة» السقف من خلال النفخ عليها!! أو أن يتم إيقاظ كتيبة ما، منتصفَ الليل، كي يبحث أفرادها عن نملة زرقاء العينيين!!

خلال عكوفي على تسجيل ما أسمعه من تجارب إخوتي وأصدقائي وأولاد مخيمي، بغية تشكيل صورة مقربة تفيدني في حال حدث المكروه الكبير وتم سوقي، جمعتُ مادة تصلح لرواية.

باب معسكر التجمعِ الأساسي مزيّنٌ بعبارة «مصنع الرجال»، كل من يدلف من تحته يأخذه الزهو في البداية، لكنه حين يوضع في مجارير الصرف الصحي، ويهان بكل أنواع الألفاظ النابية التي تمتلك قدسية الأوامر العسكرية، لن يجد مكاناً يتفقد فيه رجولته إلا مبغى أمّ علي لميس، وهناك لن يتوانى عن دفع بطانيته أو بدلته الاحتياطية أو قصعة طعامه مقابل «دَخْلَة». بدورها ستقبل أم علي هذه المقايضة، لأنها تعرف جيداً أنها ستستردها مالاً مضاعفاً، حين توشك كل دفعة على التسريح، فوقتها سيتوجب عليهم تقديم براءة الذمة، وتسليم عهدة الملابس والأغطية وما شابه، ولن يجدوا ما يسد النقص في عتادهم الحربيّ إلا في «مستودعات» تلك العاهرة.

عدم ذهابي إلى الجيش جعلني في حصار قبل هذا الحصار، لا مجال للسفر على الإطلاق، ويجب تجنّب الإشكالات بجميع أنواعها،

فحتى الحوادث المرورية تعني أمراً واحداً: السَّوَق. اللعنة.. حتى المفردة الرسمية مستلة من قاموس الرعي. طبعاً على الواقع في تلك القبضة أن يقوم بدورة سياحية كاملة على كل السجون العسكرية في محافظات البلد، حتى ينتهي به المطاف إلى «مصنع الرجال».

صدفة عمياء كسرت بطاقة هويتي الشخصية ولم أستطع تبديلها بواحدة أخرى لئلا يفتضح تخلفي عن الخدمة. ولسوء الحظ أنه حين جاءت الثورة ظهر على الإعلام دعاة دينيون حمقى، طالبوا بكسر بطاقات الهوية كإعلان للعصيان المدني. المؤسف أن العصيان الذي لم يحدث جعلني، وسواي، من العصاة المطلوبين للقصاص، ناهيك عن أنني مطلوب أساساً، فلم يعد متاحاً إلاّ التجوّل ببطاقات إخوتي.

بدأت الحلول النوعية تصبح تجارة، لا سيما وأن ما يقارب ثلثي الشعب من المطلوبين، فانتشرت بطاقات الهوية المزوّرة، والتي بدأت مع رجال الأمن أنفسهم، حيث راح الواحد منهم يحمل بطاقات بأسماء تصلح للعبور في كل مكان، كي لا يقع تحت رحمة فصائل الثورة.

اشتريتُ هوية وصار اسمي «مروان حمد حسن». حتى هذا الاسم فاتني أن أختاره. ضيّعه عليّ الخوف وضيق الوقت. لكنني حين حصلتُ عليّ من جديد، رحتُ أتجول في البلد بشجاعة كبيرة، غير مبالٍ بالحواجز والتفتيش. ولما راقتني اللعبة بدأتُ أقدم نفسي في كثير من الأماكن، ومع الجدد من الناس بوصفي مروان حقاً، وقد اخترعت له سيرة مشتهاة؛ جعلتُهُ بائع ألبسة نسائية تهدّم محله؛ خليعاً لا يؤمن بالحب؛ ذا نظرة متدينة نسبياً؛ كثيرٌ من

المسائل يلجأ إلى حلها بعضلاته. وجعلت له آراء راديكالية راح يعبّر عنها على صفحة «فيس بوك» لتصير الصفحة نادياً لتدريبي على مرواني في حال انكشف أمري. فالخوف لا يمكن أن يزول نهائياً في بلاد كهذه.

المشكلة أن مروان في كثير من اللحظات كان يتلبسني فعلاً، فيملي عليّ ما لم أفكّر فيه. تشاجرتُ به، سكرتُ به، دخلت منطقة للشبيحة كرمى لفتاة لم أجرؤ على الذهاب إليها من قبل. زرتُ به، أو معه، «الحجر الأسود» و«برزة البلد» و«كفر سوسة» في أحلك أوقاتها.

حين أخبرني صديق أنهم بدؤوا يكتشفون أمر الهويات المزورة بجهاز فحص «الكود» قلّلت حركتي، فقد قُتِل الكثير من الـ«مروانات» على الحاجز، بإعدام ميدانيّ لا نقاش فيه.

خفّ مروان فيّ مع عودة الخوف، ولم يعد يتحرّك إلا في المربع الآمن الذي يحيط ببيت عشيقته في المدينة.

آخر ظهور لمروان حمد حسن هو اليوم الذي خرج فيه من منزل العشيقة، حين واجهته دورية التفتيش التي التقاها في ممر البناية، ولعله لو ألغى الحمام يومها لطال عمره أكثر. فالذي حدث أن الضابط أشار إليه بالبندقية:

هو: أين تسكن..؟

أنا: في الطابق الثالث.

هو: مع من؟

أنا (لانتزاع بعض الاحترام): مع زوجتي.

هو: اصعد إلى بيتك.. سنأتي إليك بعد قليل.

تراجع مروان عدة خطوات إلى الوراء ليصعد، لكنه عاد حين ناداه أحد عناصر الدورية وطلب هاتفه المحمول. قدم الهاتف المحمول وأشعل سيجارة له ولرجل الأمن، في نوع من ادعاء الثبات، وربما يكون «رائد» هو من قدم السيجارة وليس «مروان»، فالأخير شخص لا مبالٍ ولديه نزعة ثورية لا تضارع، ربما ساعده على ذلك إيمانه القليل الذي سيشتد في هذه اللحظة. بينما الأول جبان وخائف، فهو نتاج كل مدخلات الخوف ومخرجاتها خلال اثنتين وثلاثين سنة عاشها في الإرهاب الأمني والمجتمعي، فيما «مروان» نتاج اللحظة الثورية وانكسار الخوف والخروج إلى الميادين والصراخ بإسقاط الاستبداد.

نبش عنصر الأمن التلفون نبشاً. بحث في الأغاني والصور. بحث في الأسماء وسجل الاتصالات. وحين بدأ بالرسائل راح يضحك. كان بريد «رائد» لا «مروان» هو المضحك. رسائل بالعشرات من نساء شهوانيات يمارسن فحيح رغباتهن في رسائل قصيرة، ستبدو كوميديا رخيصة لو سردها الآن، لكنها راقت لعنصر الأمن، بل أعجبته إلى درجة أنه راح يضرب كتفي (كتف رائد ومروان معاً) كصديق. ركن كلاشينكوفه جانباً واستند إلى الجدار بينما مروان يقف أمامه بثبات، ورائد يقف داخلي مترنحاً.

أعاد الموبايل وطلب إلى مروان الصعود إلى زوجته كي يستقبل التفتيش. قال له مروان بثقة: «لكني متأخر عن عملي»، «أخبر زوجتك ويمكنك أن تنصرف» قالها رجل الأمن مع ضحكة لئيمة مما اكتشفه من الخيانات. صعد مروان وأخبر امرأته بوصول الأمن، وأنه سيمضي قبل أن ينتبهوا لبطاقته، وعليها أن

تتدبر إكمال الفيلم.

مضيتُ وودعتُ مروان إلى الأبد. وها أنني إذ أتذكر أتمنى لو أتيح أن أكونه أكثر. عندي المزيد من الأفكار لأغادرني نهائياً، كل ما لا يعجبني موجود فيه، كما أنه كان فرصة نادرة لأكون ما لا يعجبني؛ قاسياً، بارد الأعصاب، لا أؤمن بالحب، ولئيماً حين يقتضي الأمر.

لدي خطة كاملة لـ«مروان» رغم أن «رائد» بلا أي خطة.

هل كان «مروان» صديقي بما أن الأصدقاء جزء منا، ومن هوياتنا؟ أم أنه مرحلة عمرية كالطفولة والمراهقة؟ ربما من الأنسب اعتباره مرحلة الشجاعة، فالأعمار من الطفولة إلى الكهولة خوف أعمى.

ليس القصف، ليس تشرذم العائلة، ليس تحول حاضر المخيم إلى قصص ذاكرته التأسيسية.. الإشاعات هي الأقسى في الشهور التي تلت مرحلة مروان.

حين جاءت ساعة الصفر التي رتبها الأصدقاء، كان عليّ أن أركب في سيارة رقيب في الجيش النظامي، سوف يبرز بطاقته السحرية عند كل نقاط التفتيش، وسنمر بسلام حتى يسلمني إلى إحدى كتائب المعارضة عند الحدود اللبنانية، كي يكملوا بي الرحلة.

هكذا إذاً.. النظام أوصلني إلى الحدود، والثورة أكملت بي الطريق..!

أعرف أنّكِ لن تردّي، لكنّي سأكتب هذه الرسالة لأنهي حكايتي. مثلما ابتدأ الأمر برسالةٍ إليكِ لم تردّي عليها، سينتهي برسالة أخرى، لأقلّد كاتباً تخيّلته يسمّي روايته «رسالتان دون ردّ وما حدث بينهما».

بين الرسالتين سنة كاملة. بدأ الأمر بمغادرتكِ، وقتها كتبتُ إنّكِ القطعة الناقصة من سماء دمشق. ثمّ غادرتُ، ثمّ غادر الأصدقاء، واعتقل الأمن أخي محمّد، هو أيضاً غادر. بعدها غادر إخوتي إلى مصر. وبين هذه المغادرات مات كثيرون ممن نحبّ، أي أنّ هؤلاء أيضاً غادروا.

لو بقيتُ متمّسكاً بتشبيهي لكِ فلن تكون ثمّة سماء في دمشق الآن. لكنْ لا.. ما دامت أمّي وأبي وأبو خلدون والميجر وحياة والقديسة ودلال هناك، فبالتأكيد لا تزال السماء بخير. إن كنّا نجعلُهَا تتآكل فنظراتُ عيونهم ترمّمها بلا شكّ.

حين غادرتُ كان الطريق سهلاً للغاية. الصّعب فقط هو أنّ أوّل سفرة فعليّة في حياتي جاءت تهريباً. بعدها بدت لي قصتي سخيفةً أمام القصص الآخرين الذين التقيتهم في الخارج.

الأقسى بين كل ما حدث هو غرق إخوتي الثلاثة قبالة شواطئ

الإسكندرية، حينما كانوا يريدون الوصول إلى أوروبا. غرقوا مع عشرات السوريين والفلسطينيين، وظلّوا خمسَ ساعات في عرض البحر. مهنّد ظلّ مفقوداً وتفاجأ أنه حيٌّ في الصباح، وأنّ وصيتّه بالاعتناء بأولاده وصلت، على الرغم من ظنّه أنه مات دون أن يسمعها أخواه، ذلك أنّ هدير الأمواج طغى على صراخه الأخير.

بالنسبة لمؤيد كان متأكداً أنه لن يموت، ونوبة بلاغة غريبة جعلته يشبّه البحر المتوسّط بصحراء رواية «رجال في الشمس»، بفارق أنهم «دقّوا جدران الخزّان» والبحر والعالم بالصراخ.

مراد ذهب إلى سخريته المعهودة وروى عن جارنا الذي قفز من المركب قبل الجميع، منذ شعر بأولى تباشير انكساره. نجا بنفسه تاركاً ولديه للآخرين كي يتكفلوا بإنقاذهما، بينما مات أبٌ آخر بعدما حوّل جثته إلى طوق نجاة أوصل ابنته ذات السبع سنوات حيةً إلى الشاطئ.

لاحقاً عادت جثّة الأب من المشرحة بدون تحويشة العمر التي أخفاها في ملابسه الداخليّة، وظلّت البنت محتجزةً لعدم توفر أية ثبوتيّات بعدما ذابت أوراقها في الماء.

هكذا هي المسألة: مقابلة شخصية مع الموت ويُتْم تشاهده بأم العين، ثم عليك أن تعلن من أنتَ، في وقت لا تعرف فيه من أنتَ!

أسماؤنا.. بطاقات هوياتنا.. وكل شيء أكله الطوفان.

إخوتي وزملاؤهم اقتيدوا إلى الاعتقال. هل تعرفين أنّ شباب

العائلة، مع محمد، في تلك الفترة كانوا كلهم في السجن باستثنائي؟ هل تعرفين معنى أنّ من تحبينهم مرميون في السجون؟

جرى ترحيلهم بعدها. عادوا إلى البيت ليضيفوا إلى مضافتنا الديمقراطية مزيداً من القصص، والغريب أن المضافة التي بتّ أزورها عبر «سكايب» كانت لا تزال تمتلئ بالقصص الضاحكة. القصص التي رووها لي تناسوها، وراحوا يروون أشياء أخرى، وبالأخص قصة الرجل الذي نجى بنفسه، والذي صار نموذجاً حيّاً للحكمة الشعبية القائلة إنّ الحياة للأوغاد.

مرّة واحدةً فقط في أحاديث «سكايب» أخذ مؤيد الجهاز جانباً وهمس لي كي لا يسمعه الآخرون: «فاتك أن تعيش تجربة سقوط البرميل. تشعر أن الله يسقط من السماء ساعتها». عندما غاب لم أحتج لتفسير، فقد ارتجت غرفتي هنا، على بعد ٣٠٠٠ كم.

أمسِ تذكّرتُ حين كنا نسير في الشارع وتعانقنا حين دبّ الانفجار. يومها كان العناق المباغت نوعاً من التشبّث بالحياة. لحظاتٌ فقط ثم تفقدّنا أنفسنا، اطمأنينا على سلامة أعضائنا، وبعدها أكملنا المسير كلٌّ على حدةٍ.

غادرتِ.. تبعتكِ. صحيحٌ أنهم لم يتركونا لشؤوننا الصغيرة، حتى فرصتنا في أن نملّ سلبوها، لكنّ الصحيح أيضاً أننا كنا نحتاج إلى إكمال ذلك العناق.

هل كان لا بدّ من أن نكون هناك هاربينِ، وهنا غريبينِ؟ هل كان لا بدّ من حربٍ لكي نلتقي في المرتين كأنْ لم نلتقِ؟

ربما لن تصدّقي أنني رأيتُ، في ليلة الخروج، قنديل الكاز الذي كان يدير الحكايات في المضافة معلقّاً في السماء. نعم كان فوق،

ليلة هروبي. كان القمر مكتملاً ومن حوله غيمةٌ كبرى. القمر لهب القنديل، الغيمة بلّورته، لذا كانت الليلة نهاراً.

مع وصولي هنا، فاجأتني المقبرة المجاورة بجمالها الذي ينافس أناقة المتاحف. كنتُ أعرف أن الناس لا يعيشون مثل بعضهم، ولكنني صرتُ متأكّداً أنهم لا يموتون كذلك.

أكتبُ لك هذه الرسالة كي أجد فرصةً للإفصاح عن أن قنديل بيتنا صعد إلى الأعالي، وحيثما سرتُ صارت الزرقة ترسم لي وجوه أمّي وأبي والميجر وأبي خلدون وحياة والقديسة ودلال.

إصدارات دار ممدوح عدوان

ـ الأعمال المسرحية الكاملة ممدوح عدوان. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٦).

ـ الجنوبي. سيرة الشاعر أمل دنقل. تأليف: عبلة الرويني. ط٢ (٢٠٠٦).

ـ هواجس الشعر. دراسة نقدية. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٦).

ـ أعدائي. رواية. تأليف: ممدوح عدوان. ط٣ (٢٠٠٧). ط٤ (٢٠١٥)

ـ وحيدا كذئب الفرزدق. مختارات شعرية. تأليف: أمجد ناصر. ط١ (٢٠٠٧).

-تهويد المعرفة. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٧). ط٢ (٢٠١٥).

ـ تفسير الأحلام. قصص قصيرة. تأليف: الفارس الذهبي. ط١ (٢٠٠٧).

ـ زوربا البرازيلي. رواية. تأليف: جورج آمادو. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧). ط٣ (٢٠١٤).

ـ تقرير إلى غريكو. سيرة ذاتية. تأليف: نيكوس كازنتزاكيس. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧).

ـ النقد الذاتي بعد الهزيمة. دراسة. تأليف: صادق جلال العظم. ط٣ (٢٠٠٧).

ـ حيونة الإنسان. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧). ط٣ (٢٠١٤).

ـ جنون آخر. مقالات. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٧). ط٢ (٢٠١٥)

ـ حكاية الشيخ أبي خليل القباني والوالي مدحت باشا العثماني. مسرحية. تأليف: دلع الرحبي. ط١ (٢٠٠٨).

ـ مولانا. مسرحية. تأليف: الفارس الذهبي. ط١ (٢٠٠٨).

ـ بنات نعش. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط١ (٢٠٠٨).

إصدارات دار ممدوح عدوان

-أطياف ممدوح عدوان: شهادة الحياة وشهادة الابداع. دراسة. تأليف: أ.د محمد صابر عبيد. ط١ (٢٠٠٨).

ـ تاريخ التعذيب. دراسة. تأليف: بيرنهاردت ج. هروود. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٨).ط٣(٢٠١٥).

ـ لا غبار عليك. شعر. تأليف: لقمان ديركي. ط١ (٢٠٠٨).

ـ دفاعاً عن الجنون. مقدمات. تأليف: ممدوح عدوان. ط٣ (٢٠٠٩).

ـ الإلياذة. تأليف: هوميروس. ترجمة وتعليق: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٩).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة محمد مردان. شعر. تأليف: د. محمد مردان. ط١ (٢٠٠٩).

ـ سلطانات الرمل. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط١ (٢٠٠٩)

ـ الخارطة الشعرية في الأغنية الرحبانية. تأليف. محمد منصور. ط١ (٢٠٠٩)

ـ خطفني الديك. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط١ (٢٠٠٩)

ـ التفاتة العابر في ظله. شعر. تأليف: محمد أبو لبن. ط١ (٢٠٠٩)

-أدونيس وفاتح. حوار. ط١ (٢٠٠٩).

ـ الجرذان الغريقة. رواية. تأليف: وائل رداد ط١ (٢٠١٠).

ـ المتنبي في ضوء الدراما. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان ط٢ (٢٠١٠).

ـ النار والأبد. دراسة. تأليف: محمد بن صالح. ط١ (٢٠١٠)

ـ امرأة تنظر باتجاه الماء. شعر. تأليف: محمد بن صالح. ط١ (٢٠١٠)

ـ البحر والصفصاف. مسرحية. تأليف: محمد بن صالح. ط١ (٢٠١٠)

ـ وداد من حلب. رواية. تأليف: قحطان مهنا. ط١ (٢٠١٠)

إصدارات دار ممدوح عدوان

ـ سارة شما. أعمال فنية (٢٠١١).

ـ تجربة الصين الاقتصادية. تأليف: سمير سعيفان. ط١ (٢٠١١)

ـ مسرحيات عربية من الألفية الثالثة. تأليف: مجموعة مؤلفين. ط١ (٢٠١١)

ـ حب. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط١ (٢٠١١)

ـ هُنا في الحديقة. مسرحية. تأليف: لواء يازجي. ط١ (٢٠١٢)

ـ موتى يقلقون المدينة. قصص. تأليف: عمران عز الدين. ط١ (٢٠١٢)

ـ سكران المجانين. شعر. تأليف: عدنان عودة. ط١ (٢٠١٢)

ـرسالة إلى الجنرال فرانكو. رواية. تأليف: فرناندو أرّابال. ترجمة: عمار أتاسي. ط١ (٢٠١٣)

-قفزة في الهواء (الديوان الأخير). شعر. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠١٤).

-أُنقِذَ. مسرحية. تأليف: إدوارد بوند. ترجمة: لواء يازجي. ط١(٢٠١٤).

-الأصبع السادسة. رواية. تأليف: خيري الذهبي. ط٢ (٢٠١٤).

-أنا حوري. شعر محكي. تأليف: عدنان عودة. ط١(٢٠١٤)

- قطعة ناقصة من سماء دمشق. نص. تأليف: رائد وحش. ط١ ٢٠١٥.

١. أبو خليل القباني	ناكر الجميل
٢. عبد الوهاب أبو السعود	وامعتصماه
٣. وصفي المالح	طريق النصر
٤. خليل هنداوي	هاروت وماروت
٥. حكمت محسن	صابر أفندي
٦. مراد السباعي	شيطان في البيت
٧. حسيب كيالي	قارعوا الأبواب
٨. سلمان قطاية	القضية والحل
٩. محمد الماغوط	العصفور الأحدب
١٠. وليد مدفعي	وبعدين؟!
١١. وليد فاضل	إيفا
١٢. وليد إخلاصي	سهرة ديمقراطية على الخشبة
١٣. سعد الله ونوس	طقوس الإشارات والتحولات
١٤. فرحان بلبل	الممثلون يتراشقون الحجارة
١٥. علي عقلة عرسان	رضا قيصر
١٦. مصطفى الحلاج	الدراويش يبحثون عن الحقيقة
١٧. عبد الفتاح قلعجي	العرس الحلبي
١٨. رياض عصمت	لعبة الحب والثورة
١٩. ممدوح عدوان	ليل العبيد
٢٠. حكيم مرزوقي - عبد المنعم عمايري	حلم ليلة عيد ـ صدى

زيناتي قدسية ـ موفق مسعود
الأب إلياس زحلاوي
أحمد يوسف داود
شوقي بغدادي
الكتاب الشباب ج١
ـ عدنان العودة
ـ عمر أبو سعدة
ـ محمد أبو لبن
ـ يم مشهدي
ـ الفارس الذهبي
الكتاب الشباب ج٢
ـ هوزان عكو
ـ كفاح الخوص
ـ وائل قدور
ـ ليندا الأحمد
ـ يامن محمد

مجنون يحكي ـ الرجل الدائري
المدينة المصلوبة
الخطا التي تنحدر
تلك الليلة

خيل تايهة
ليلة
آخر العشاق
باريس في الظل
ريح

برواتة أو الحرائق
حكاية بلاد ما فيها موت
الفيروس
الملحق
قدم إلى الأمام قدم إلى الوراء

لأننا من أصول بدوية اعتصمنا بالنهر. القبائل التي هاجرت من فلسطين المنكوبة خيّمت على ضفة النهر لخوف دفين في ذاكرة القوم من غياب الماء، من انعدام الثقة بالسماء، على عكس الفلاحين الذين يؤمنون بأنها لن تنساهم أينما حلّوا، بينما نحن الذين نؤمن بالأرض وبماء الأرض سكنا هنا. لحسن الحظ أنّا وجدنا نهراً أعوجَ نحاكيه. أهل البداوة لا يعرفون خطاً مستقيماً، وبشفاعة اعوجاج النهر شوارعنا كلها عوجاء. ما من شارع يستقيم لأكثر من ثلاثة بيوت.

****

العتمة قادمة إذاً. الليل الكبير سيحلّ قريباً. ترى لماذا إذا جاء القتلة، أيّ قتلةٍ، لماذا تلمع خناجرهم؟ لماذا يضيء الرصاص؟ لماذا لا تكون خناجرهم عتماء، ورصاصاتهم بلا ضوءٍ؟ هل الضوء قاتلٌ، والعتمة رحيمة؟

****

ظل العالم يحاول إقناع أدمغتنا العنيدة أن البيت الحقيقي هو القبر والباقي محطات ليس إلا، ولم نكن لنقتنع بأقل من حرب.

تصميم الغلاف: مناف عزّام

تابعونا

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-9119-1-1

9 789933 911911